محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الأول

تأليـــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

تقديم:

أ.د. عبدالفتاح عبدالغنى العواري

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي بيّن للمستهدين معالم مراده، ونصب للمستفتحين أعلام أمداده، فأنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وقانونًا عامًا معصومًا، وأعجز بعجائبه الإنس والجن فظهرت يومًا فيومًا، وجعله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب وعليه مهيمنًا، وجمع فيه سير الأولين والآخرين من الأنبياء والمرسلين، فيه تبيان كل شيء، وما فرط فيه من شيء يعظ مسيئًا، ويعد محسنًا:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾
(هود: ١)

وأصلي وأسلم على من كان خلقه القرآن سيدنا محمد الذي خاطبه ربه بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

فبه أصبح الرسول الأمي سيد الحكماء المربين، ومعلم المتعلمين ورحمة الله للعالمين، شرح الله به صدره، إذ قال له:

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾
(النمل: ٧٩)

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الرحماء الذين قاموا

بتبيانه، ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة الذين بينوا أسراره. وبعد:

فلما كانت مجلة الأزهر الغراء بمثابة الشمس التي تشرق بنورها الوهاج فتغطي أرجاء الكون كله، إذ تحمل في طيات بحوثها ثراء فكريًا متدفقًا، وتنوعًا موضوعيًا حسب تنوع روافد العلم الذي عنيت به هذه المجلة منذ إنشائها وإلى يوم الناس هذا، تنوعًا يتفق وعراقة الثقافة الأزهرية الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ المشرف لكعبة العلم وقبلة العلماء- الأزهر الشريف مرجعية أهل السنة والجماعة- في العالم الإسلامي بأسره، صاحب المنهج الوسطي عقيدة وشريعة وأخلاقًا المستمد من الكتاب والسنة، المأخوذ من أقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة المعتبرين في أصول الدين وفروعه، حيث قاموا بالواجب المنوط بهم فنشروا الوارد من كل ذلك، وزادوه شرحًا وتجلية، وتبيانًا، وإن ما قالوه في الأصول، وقرروه واستنبطوه في الفروع، وجاء به الشرع صحيحٌ في العقول حيث اعتصموا بالكتاب والسنة اعتصامًا، وألجموا العوام عن الخوض في علم الكلام خوف العثار إلجامًا.

فهم بحق كما يقول حجة الإسلام الغزالي: «الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول، الجاعلة كل واحد منهما أصلاً مهمًا، المنكرة لتعارض العقل والشرع، وكونه حقًا، ومن كذّب العقل فقد كذّب الشرع إذ

بالعقل عرف صدق الشرع، ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي، والمتنبئ، والصادق والكاذب، وكيف يُكْذَبُ العقل بالشرع وما ثبت الشرع إلا بالعقل» اهـ.

ومن بين هؤلاء العلماء- عَلَم كلية أصول الدين وعميدها الأسبق الشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون -رحمه الله- وأجزل له المثوبة جزاء ما قدم لدينه ووطنه وأمته.

تولى -رحمه الله- عمادة الكلية في ٧ / ١١ / ١٩٦٩م إلى ١٩٦٧م، فكان نهرًا متدفقًا من العلم والمعرفة مدارسة ومحاضرة، تأليفًا وتحقيقًا.

واليوم نضع بين يدي قراء مجلة الأزهر الغراء رافدًا من روافده التي أثرى بها المكتبة الإسلامية، رافدًا يخدم علوم السنة والسيرة ويمثل سفرًا نفيسًا يطير بجناحي التحقيق والتدقيق، يحمل عنوانًا فيه دلالة على عظم وقدر ما انضوى تحته، ودقة وعمق ما انتظم في سلكه، من حق صراح يليق بقدر هذا العنوان الفخم، (محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة- بحث وتحقيق) اشتمل هذا الكتاب على حديث باهر عن شخصية سيدنا رسول الله ﷺ حامل رسالة القرآن.

قَرَأ -عَلَمُ أصول الدين وشيخُ مشايخها- كلَّ ما كتب عن محمد رسول الله في مؤلفات القدامى والمحدثين، بيد أنه في تقرير القضايا، وإبراز الحق الحقيق بالاعتبار حَكَّمَ فيه القرآن بما جاء فيه عن محمد رسول الله، ثم توجهت همته إلى السنة

النبوية الصحيحة النسبة الصالحة الحجية، يقرأ فيها عن محمد رسول الله ﷺ، معوِّلاً على دراسة حياة محمد الرسول، لا محمد العبقري لا محمد البطل، مسجلاً ما يقرؤه عارضًا له على موازين المحدثين الدقيقة الذين يسبرون الروايات، ويوازنون بينها من حيث صحة السند وصحة المتن، فأيتها رَجُحَتْ عنده كفته في صحة السند والمتن قبله وسجله، مبينًا سبب قبوله ببراهين نقلية، وأخرى عقلية. يقول -عليه الرحمة- : «غير أني وجدت باب المعجزات الكونية مقفلاً على العقل، فلا يصح أن يتحكم فيه؛ لأن العقل معزول عن تجاوز حدوده في سنن الله الخاصة، وباب المعجزات الكونية من هذا القبيل بشرط أن يصح صحة لا يعارضها ما هو أعلى منها».

لقد استخلص الشيخ عرجون -رحمه الله تعالى- وسطر بقلمه المطواع ما استخلصه من نور السيرة النبوية العطرة في هذا الكتاب، متجنبًا ركام سُحب الظلام الذي نسجت بُرْدَه الروايات العاطفية والنقول التقليدية التي لا يمكنها أن تصمد أمام حقائق الوحي النيرة، ولا يمكنها أن تقبل في ميزان العقل، وتحقيق البحث.

وعند التأمل الصادق لهذا الكتاب، وما جادت به قريحة كاتبه، يرى أن المادة التي صاغ بها أسلوبه، وبنى منها صرح كتابه كانت قريبة المنال، سهلة التناول، واضحة المعالم، معلومة الغاية والهدف لا تخفى على طالب العلم،

بله العلماء الأعلام إذ ترتكز على أساسين :

أولهما: القرآن الحكيم من بين دفتي المصحف لا من كتب التفسير التي قد يحوج البحث إلى النظر فيها أحيانًا، ولكن لا على أنها مصدر البحث ومرجع التحقيق بل على أنها مثل لما قيل وفيها ما فيها.

وارتكازه على القرآن الكريم أولاً؛ لما هو معروف ومقرر في معيار الحق والنصفة من كون القرآن عرض لكثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهو فيما عرض إليه أصل من الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة ولا مع برهانه برهان، ونصه قطعي الثبوت قطعي الدلالة في أغلبه ظني الدلالة في بعضه فهو القاطع لشُبهة الخصوم، وقوله هو الفصل ليس بالهزل.

ثانيهما: السنة النبوية المطهرة صحيحة النسبة إلى رسول الله ﷺ أو الصحابة الذين عاصروه وعايشوه.

ولعل ارتكاز العلامة المحقق الشيخ عرجون- طيب الله ثراه- على السُّنة ثانية لأن التي صح نقلها عن رسول الله ﷺ وصحبه الكرام لا يمكن أن تعارضها شبهة، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الصحة لا تقف عند صحة السند، بل تتعداه إلي صحة المتن، بل إن صحة المتن أهم وأعظم، ونعني بصحة المتن عدم مخالفة ما يروى لأصل من أصول الإسلام، دون لجوء إلى التأويلات المتعسفة، والمماحكات الفارغة،

ذلكم لأن عصمة الأنبياء في عقيدتنا أصل من أصول الإسلام وركن من أركان الإيمان، فإذا جاءت رواية تمس من قريب أو بعيد عصمة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، وجب طرح هذه الرواية وعدم قبولها، وبيان سقوطها عن درجة الاعتبار بالكلية أيا كان راويها، لأنه غير معصوم من الوهم أو الغلط.

لقد سلك الشيخ عرجون في هذا الكتاب الممتع مسلكًا فريدًا فمادته التي بنى على أساسها منهجه هي الروايات الصحيحة التي لا تدافعها شبهة ومن قبلها آيات الذكر المجيد التي أتت متحدثة عن النبى محمد ﷺ في خطاب خاص في الوصف والتوجيه، ورسْم طرائق تبليغ الرسالة، وبيان معالم التأسي به ﷺ، أو جاءت متحدثة تعمه بالخطاب مدخلة معه مجتمعه المسلم أينما كان وكيفما كان، أو جاءت متحدثة عن حوار بينه وبين غير مجتمعه من أهل الكتاب والمشركين، أو كان حديثًا عن المجتمع المسلم وتربيته تربية سلوكية لتكون له وراثة التأسي به.

وفوق ذلك سيجد القارئ الكريم في هذا السفر النفيس كثيرًا من التحقيقات والتعليقات المفيدة، وبحوثًا هادفة نافعة تناقش الروايات المتداولة بين أهل العلم قديمًا وحديثًا؛ كي يستخلص من أضابيرها الصحيح النسبة الذي يتفق مع نصوص القرآن الكريم، ويتوافق مع حياة الرسول العظيم ﷺ منذ ولادته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ويتفق مع ما ثبت عنه ﷺ ثبوتًا أقرب في صحته إلى القطع الذي لا يقبل الشبهات.

وهذه التحقيقات النفيسة، والتعليقات المفيدة، والبحوث القيمة هـي في الحقيقة الركن الركيـن، والعنصر الأصيل في الغاية من تأليف الشيخ -رحمه الله- لكتابه.

ولقد كان للشيـخ- رحمه الله- كذلك في كتابه وقفات مع «العقلانييـن» في مدى ما يمكن أن تصل إليه مدارك العقل من حقائـق الكون العظيم وهو بحـث مفيد في الحديث مع هؤلاء الذين يؤلهون العقل، ويعطونه حق التحكم المطلق في أحاديث الحياة والكون، ولا يلتفتون إلى الوحي الإلهي المعصوم، فبين لهم بالأدلة الدامغة والحجج الساطعة والبراهين الواضحة أن كثيـرًا جدًا من حقائق هذه الحيـاة والكون والعقل معزول عن إدراكـه -العقل- لأنـه محـدود التكوين، ومحـدود الإدراك، فكان لزامًا على العقل أن يتقيد بالشرع ويستمسك به؛ كي لا يقع في دياجير الحيرة ويتخبط في متاهات التناقض.

إلـى غير ذلـك من القضايـا العلمية التـي عالجها وكذلك إيـراده للشـبهات التـي أثارها الخصـوم، حولهـا، ودفعه لها ومناقشـته إياهـا مناقشـة قامت على أصول علميـة وقواعد منطقية، وبراهين عقلية لا يؤمن الخصم إلا بها، فجاءت حجة أهـل الحق تتبختر اتضاحًا، وتـوارت رغوة الباطل، وتضاءلت شبهته افتضاحًا، قاذفًا بالحق الأبلج على بطلهم فإذا هو زاهق.

ومن ثم رأت مجلة الأزهر أن تقدم هذا السـفر النفيس (محمد رسـول الله: منهج ورسـالة، بحث وتحقيق) في سلسلة متواصلة

مع غرة كل شهر عربي مراعاة لضخامة حجم الكتاب كمًا وكيفًا .

آملين أن يجد القراء الكرام فيه زادًا من العلم نافعًا ، ودافعًا يأخذ بأيديهم إلى النظر الثاقب والتأمل الصادق في كتب التراث لتنقيتها مما شابها من دخل ، وما ران عليها من أضاليل ، أدخلها عليها أعداء الإسلام قديمًا ، فقبلها من ليس لديه نصيب من التحقيق بالاستسلام .

رحم الله الشيخ عرجون رحمة واسعة ، وأجزل له المثوبة جزاء ما قدم خدمة لدينه وأمته .

وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى صراطه المستقيم إنه أعظم مسئول ، وخير مأمول ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أ. د. عبدالفتاح عبدالغنى العوارى

عميد كلية أصول الدين – جامعة الأزهر

القاهرة

١٨ من ذى الحجة ١٤٣٦ هـ

٢٠١٥/٩/٢ م

فكرة الكتاب

ليس هذا الكتاب حشـدًا لروايات أحداث السيرة النبوية، وجمعها من شـتيت مؤلفاتها ودواوينها في مؤلف واحد، كما صنـع كثير من الأعلام في جمع كتب أمّهات الحديث وغيرها من كتب الفنون التي شُـهرت بالجوامع، ولكنه فكرة دراسيَّة للحقائق والمعاني التي تضمنتها وقائع السيرة.

وقـد راودتني فكرة هـذا البحث منذ زمن بعيد لا أسـتطيع تحديـده تحديـدًا يقف بـه عند تأريـخ معين باليوم والشـهر والسنة، وإنما هي فكرة لمعت في ذهني، فكانت أشبه بأشعة الشـمس عنـد الإِصباح، ثـم لم تزل تعلو وتشـتد فـي حياتي التوّاقـة إلـى البحث حتى اسـتوت فـي كبدها شمسًـا وهّاجة بدّدت من أفق تفكيري سـحائب التسـليم المستسلم لكل ما أقرأ من كتب الأقدمين من أئمة أعلام الإِسلام الذين تخصصوا فـي أحداث السـيرة النبوية ورواياتها، والذين شُـهروا برواية الحديـث، والذين جمعوا في تفسـير القـرآن الحكيم روايات سميت تفسيرًا بالمأثور.

وكانـت قراءاتـي متدرجة من مرحلة إلـى مرحلة، وفي كل مرحلة وقفات للفكر متسـائلة: أهذا صحيـح؟ أهذا معقول؟ وكنـت أُجيـب نفسـي عـن تسـاؤلاتي بأجوبـة مستسـلمة لأصحـاب الهالات المشـهَّرة، لكن ذلك كثر كثرة خشـيتها على تفكيري، وخشيتها على ديني وعقيدتي.

فرجعت إلى القرآن العظيم، واتخذته وحدَه الصديق الحميم الذي أصغي إليه وأحاول أن أفهم عنه، وصفّيت نفسي بقدر المستطاع عن الإنصات لغير جَرْسه، والاستماع لغير هَدْيه، ورسمت لنفسي مع القرآن العظيم خطة لأستخلص منه ما أستنقذ به نفسي من الاستسلام الموبق أيًّا كان المتكلم غير القرآن الحكيم في جميع ما جاء به، أو الرسول الأمين في كل ما ثبتت صحته بالرواية عنه بغير معارض أقوى منه.

وللقرآن الكريم منهج في بنائه الفني وهو رأس إعجازه بهدايته التي أُنزل بها أمانة في عنق الأمة الإسلامية لتطبيقها واقعًا في حياة مجتمعها أينما حلّ من أرض الله، والإعجاز بالهداية هو معجزة القرآن الخالدة خلود العقل، أما الإعجاز الأسلوبي في براعة البيان وروعة الأداء فهو إعجاز خاص بمن يفهمه ويزنه بميزان ركائزه من البلاغة العربية التي ذهب أهلها بعد أن استعجموا، فلم يبق على ظهر الأرض من يقوم بحمل أمانته بالسليقة ولا بالتعلّم لما سمّاه البلاغيون بلاغة وبراعة، وإنما هو شيء رسخ في قلوب المسلمين؛ لأن عجز أهل السليقة البيانية عن معارضته مع شدة وَخْذ التحدي المتدرِّج حجةٌ على عَجْز من لم يكن من هذه السليقة البيانية بسبد ولا لبدٍ(١)، فهذا الإعجاز الأسلوبي في روعته معبر

(١) يقولون: ما له سبدُ ولا لبد: أي ما له شعر ولا وبر متلبد. (المجلة)

للإعجاز بالهداية الباقية الخالدة، وبالهداية كان الإعجاز عامًا شاملًا للزمان والمكان والأجيال والأفكار، وقد بينا ذلك في كتابنا (القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) وأعني بالبناء الفني للقرآن العظيم هذا التنوع في أداء المقاصد الشاملة لحاجات الحياة أفرادًا وجماعات، عقيدة وتعبدًا، وتشريعًا وأنظمة اجتماعية وآدابًا خلقية وتربية سلوكية.

وكانت اللبنة الأولى في هذا البناء الفني في الحديث عن شخصية حامل رسالة القرآن ﷺ، وكان هذا الحديث منوعًا لو جمعت آياته في إطار التصور الحسي لكانت هي (محمد رسول الله منهجًا ورسالة).

ومن هنا بدأت فكرة الكتاب، فبدأت من جديد أقرأ ما كتب عن محمد رسول الله في مؤلفات القدامى والمحدثين، وأُحكِّم فيه القرآن بما جاء فيه عن محمد رسول الله، فصادفتني فجوات ومهاوي في روايات أصحاب السير لا تنسجم مع هداية القرآن، وألحّ عليَّ الشك في هذه المؤلفات، وتوجهتُ إلى كتب الحديث أقرأ فيها عن محمد رسول الله، وإذا بي كلما أمعنت في القراءة كلما ازدادت عليّ مضايق الفكر من كثرة الاختلاف بين الروايات وكثرة الأغاليط في الحقائق والمعاني.

فعوّلت على أن أدرس حياة محمد رسول الله، لا محمد العبقري، ولا محمد البطل، وأسجل مما أقرأ بميزاني

للروايات القائم على الموازنة بينها في صحة السند وصحة المتن، فأيّتها رجحت كفته في صحة السند والمتن قبلته وسجّلته، وبينت سبب قبوله بأمور نقلية وعقلية، غير أني وجدت باب المعجزات الكونية مقفلًا على العقل، فلا يصح أن يتحكم فيه؛ لأن العقل معزول عن تجاوز حدوده في سنن الله الخاصة، وباب المعجزات الكونية من هذا القبيل بشرط أن يصح صحة لا يعارضها ما هو أعلى منها، وجمعت مما سجلت الكثير الطيب مستعينًا بالله الرحيم الودود.

هدف الكتاب

وقد كان أن تبلور في صدري هدف الكتاب، إذ وجدتني «متكيِّفًا» بروح ما جمعت وما سجلت، وإذا بهذه الروح تشرق بشمسها في آفاق نفسي، وتلحُّ عليَّ أن أستخلص نور السيرة النبوية من ركام سُحُب الظلام الذي نَسَجَتْ بُرْدَه الروايات العاطفية والنقول التقليدية التي لا تقف أمام الحقائق بميزان العقل وتحقيق البحث.

ورجعت أقرأ ما جمعت وما سجلت، وأُنقِّيه من غَلَس الأساطير ليبرز منه منهج الرسالة في معالمها الواقعية في التطبيق السلوكي الشامل لعناصرها في الكليات والجزئيات، وكان أن استوى هدف الكتاب على سوقه في إطار إبراز معالم منهج الرسالة الخالدة في شخص محمد رسول الله ﷺ.

وفي هذا الفصل تتجلى قوة الصراع بين الحق والباطل،

وبيــن الإِيمــان والعواطف ؛ إذ قلّما صادفتنــي رواية في معناها وموضوعها لم تعارضها روايــةٌ أو رواياتٌ أخرى ! ! وهنا تظهر عثــرات الأكابــر ذوي الهالات المشــهَّرين في تاريــخ التراث الإِسلامي ولا سيما في رَصْد روايات السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثهــا ، وتتغلّــب العواطــف علــى العقــل ، ويقــف العقل كالمتهــم البــريء الذي لا يجــد ناطقًا بحجتــه ، وأخوض هذه اللجّــة حَذرًا مــن المزالق ، وجلًا ممن أناقــش ؛ لأنه اقتعد ذروة الشــهرة والاستســلام لما يقول ، وحَسْــبه عند المتعالمين أنه «فلان» ومَن الذي يردُّ على «فلان» روايته أو قوله ؟ ! .

ولكني أطلتُ الوقوف ، ثم اســتعنت الله ، وقلت لنفســي : هذا دين به تَلقْين الله ، وعنه تُسألين من الله تعالى فانظري : هذه الجنة ونعيمهــا ، وهذه النــار وجحيمها ، وأنــى لي بالصبر علــى النار ، ولجــأت إلى الله تعالى مســتغيثًا أرجو رحمته ، وعَــزَمَ لي الأمر أن أكتــب ما وصلت إليه باجتهادي ، وســألته أن يرزقني حســن النية وقصــد الســبيل فيما إليه قصــدت ، وهو الغفور الــودود ، ولكني كنت أكتب متحوِّطًا لنفسي ، ومتوقعًا لنقد الناقدين ، متصدِّقًا بما ينالني ، مستغفرًا لنفسي ولمن ظلمني ، راجيًا أن يقع هذا البحث موقع القبول الذي يفتح للباحثين أبواب الولوج إلى ساحة التراث الإِســلامي المبتلى بالتشــويه لتنقية الحقائق من غَلَس الأباطيل ، حتــى لا يكون لأعداء هذه الرســالة الطاهرة المطهَّرة ســبيل إلى هدم معالمها بمعاول التدسيس في تراثها .

مادة هذا الكتاب

كانت المادة التي بُني منها صرح هذا الكتاب قريبة المنال، سهلة التناول، معروفة المعالم، لا تخفى على طلبة العلم بَلْهَ العلماء والأعلام، فهي: أولًا: القرآن الحكيم من بين دفتي المصحف، لا من تفاسير المفسرين التي قد يحوج البحث إلى النظر فيها، ولكن لا على أنها مصدر البحث ومرجع التحقيق، بل على أنها مُثل لما قيل، وفيها ما فيها.

والقرآن الحكيم عرض لكثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهو فيما عرض إليه أصل الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة، ولا مع دليله دليل، ونصه هو القاطع للخصومة، وقوله هو الفصل.

ثانيًا: السنَّة المطهَّرة التي صح نقلها عن رسول الله ﷺ لا تعارضها شبهة، وهذه الصحة لا تقف عند صحة السند، ولكن لا بد فيها من صحة المتن، بل إن صحة المتن أهم وأعظم، ونعني بصحة المتن عدم مخالفة ما يروى لأصل من أصول الإسلام، دون لجوء إلى التأويلات المتعسفة، وعصمةُ الأنبياء في عقيدتنا أصل من أصول الإيمان والإسلام، فإذا جاءت رواية تمسّ من قريب أو من بعيد عصمةَ محمد ﷺ وجب طرح هذه الرواية كان مَنْ كان راويها؛ لأنه غير معصوم من الوهم والغلط.

منهج الكتاب

تَتبُّع النصوص في الموضوع الواحد والمسألة الواحدة بالنظر إلى ما فيها من اختلاف أورثها إياه مذهب القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى، وهو مذهب أدى إلى ضياع كثير من التعبيرات النبوية - هو الأساس الأول في منهج هذا الكتاب.

وفي إطار هذا المنهج بدأت البحث، وفي إطاره تكامل الكتاب الذي لا يجد فيه قارئه شيئًا غريبًا عن معارفه التي قرأها في مصادر السيرة النبوية؛ لأن مادته التي بُني على أساسها هي الروايات المتداولة بين أهل العلم قديمًا وحديثًا، ومن قبلها آيات القرآن العظيم التي جاءت متحدِّثة عن محمد رسول الله ﷺ في خطاب خاص في الوصف أو التوجيه ورسم طرائق تبليغ الرسالة، وبيان معالم التأسي به ﷺ، أو جاءت متحدثة تعمه بالخطاب مدخلة معه مجتمعه المسلم أينما كان وكيفما كان، أو جاءت متحدثة عن حوار بينه ﷺ وبين غير مجتمعه من أهل الكتاب والمشركين، أو كانت حديثًا عن المجتمع المسلم وتربيته تربية سلوكية لتكون له وراثة التأسِّي به.

بيد أن القارئ سيجد في الكتاب تحقيقات وتعليقات، وبحوثًا تناقش هذه الروايات لتستخلص من أضابيرها الصحيح الذي يتفق مع نصوص القرآن العظيم، ويتفق مع حياة رسول الله ﷺ الإنسانية منذ ولادته إلى أن فارق دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ويتفق مع ما ثبت عنه ﷺ ثبوتًا

أقرب في صحته إلى القطع الذي لا يقبل الشبهات.

وهذه التحقيقات والتعليقات والبحوث هي في الحقيقة العنصر الأصيل في هدف الكتاب، وهي إذا جُرّدت من الكتاب كانت أضخم حجمًا، وأعظم قدرًا من نصوص الروايات، ولكنها لارتباطها بالروايات ارتباطًا لا تنفصم عُراه، ولا تحلّ وثاقته يجعل من العسير القريب من المحال تجريدها عنها؛ لأن الكتاب حينئذ يفقد حقيقته التي بُني عليها.

ومن ثم بدأتُ الكتاب بمقدمات تمهيدية عن «محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته» وهي مقدمات جرى فيها البحث عن الحياة الإنسانية التي عاشها محمد ﷺ بشرًا بين قومه وأغصان دوحته القرشية، عربيًا متكامل الخلق والخُلق، متنائيًا بعقله عن مزالق العبودية لغير الله.

وفي هذه المقدمات عرضتْ لنا روايات تتحدث عن إرهاصات كونية، لا يسارع العقل إلى تسليمها والإيمان بها، وهنا كان لنا موقف مع العقل و(العقلانيين) في مدى ما يمكن أن تصل إليه مدارك العقل من حقائق الكون العظيم، وهو بحث مفيد في الحديث مع هؤلاء الذين يؤلهون العقل، ويعطونه حق التحكم المطلق في أحداث الحياة والكون، بينا فيه بالأدلة والحجج الواضحة أن كثيرًا جدا من حقائق هذه الحياة وهذا الكون العقل معزول عن إدراكه؛ لأن العقل محدود التكوين، ومحدود الإدراك، ولكننا قلنا إن الاعتماد في مثل هذه الروايات على صحتها صحة

ترفعهـا إلى إمكان القبول ردًّا إلى اقتـدار الله تعالى، على أن ردها في هذه المرحلة البشرية التي لم تكن معها نبوة لا يخدش الإيمان في قليل أو كثير.

وقد عدنا لهذا البحث عند الحديث عن المعجزات الكونية التي ثبت وقوعها بعد الرسـالة، فقد تكاثرت رواياتها تكاثرًا يصعب معه ردها، وهي من روايات الصحيح، وذكرنا في ذلك كثيرًا من الأمثلة القائمة في حياة الناس أفرادًا وجماعات، وهم بعلمائهـم الكونيين عاجـزون عن إدراك حقائقهـا ومعانيها، ولكنهـم ينتفعون بآثارها التجريبيـة، ووقفنا في صدد قبولها أو ردهـا عند توثيـق روايتها مـن الثقاة المشـهود لهم بالعلم والفضـل، ورأينـا أن عـدم قبولهـا لعجـز العقل البشـري عن الوصول إلى سـنتها الخاصة التي قام عليها وجودها جرحة في إيمـان المؤمن؛ لأن كثرتها في سـياقات الصِّحـاح يجعل من الصعب جدًا إنكارها أو التوقف مع العقل في عدم قبولها؛ لأن ذلـك يفتح البـاب أمام إنكار الغيبيات التي هـي بعيدة المنال عن مدارك العقل، وكثير منها من أصول الإيمان.

وقـد بدأنا البحث بعد هذه المقدمات بالحديث عن الوحي والنبوة وحقيقتهمـا ومعناهما، ثم خصصنا الحديث عن نبوة محمد ﷺ، وناقشنا هنا بعض الأكابر ذوي الهالات المشهَّرة مـن علماء الإسـلام في مؤلفاتهم التي نالت ما يشـبه الإجماع على قبول ما روت وجمعت، كما ناقشـنا قول الملاحدة فيما

يعتري النبي ﷺ من قوة الروحانية حين تلقيه الوحي مناقشة علمية مستقاة من آيات القرآن الكريم، وومضات العقل، وآثار الهداية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلًا في آثار دعوات الأنبياء والرسل، وهم صفوة الخلق في هذه الحياة.

وقد أقمنا بناء الكتاب على مرحلتين أصيلتين أجرينا الحديث في أحداثهما: المرحلة المكية، والمرحلة المدنية، وكانت في كل مرحلة منهما تحقيقات لأحداث وأحاديث، ولا سيما المرحلة المكية وما كان فيها من مواقف للنبي ﷺ في إيمانه برسالة نفسه ودعوته إلى الله، واشتداد الخطوب والكوارث عليه وعلى أصحابه، حتى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليخرجوا بالدعوة وتبليغ الرسالة إلى مجال يجدون فيه أرضًا يستنبتونها، وبيَّنا بيانًا شافيًا أن هذه الهجرة كانت من أعظم السياسات الحكيمة التي ساس بها ﷺ مجتمعه، وبينا أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لرواد الدعوة من أهل الرسوخ في الإيمان واليقين لم يكن كما تقول بعض الروايات من الفقراء والعُبدان والضَّعْفى؛ بل كان فيهم كثرة غامرة من أعلياء بيوت قريش منافيِّين، ومخزوميين، وزهريين، وأعلياء بعض القبائل التي كانت خارج مكة، وهنا كتبنا فصلًا مسهبًا بسطنا فيه البحث في أخبث قصة اشتملت عليها أحداث السيرة، تلك هي قصة الزندقة الكبرى أضلولة (الغرانيق)، وقد أتينا في هذا البحث على ما يقرب من جميع ما قيل فيها إثباتًا لا يعتمد إلا على خيط العنكبوت، ونفيًا اجتث

جذورها، ورمى بها في هاوية الأباطيل التي كيد بها الإسلام وكتابه القرآن المجيد.

وقد كان أغرب ما صادفناه أننا وجدنا بين من يثبتها ويتعصب لإثباتها ممن يشار إليهم في الإصلاح الفكري في تاريخ الإسلام!! ثم ذكرنا مواقف قريش من النبي ﷺ، وموقف عمه أبي طالب في دفاعه عنه وحمايته، ومحاوراتهم معه، ورد رسول الله ﷺ على عمه، وذكرنا موقفًا غريبًا جدًا في ليلة الهجرة وائتمار المشركين به ﷺ مما أشار إليها القرآن الكريم، ولم نجد في الروايات ذكرًا قط لبني عبد مناف عامة أو الهاشميين خاصة إزاء هذا التآمر الدنيء، وتساءلنا: أين بنو عبد مناف، وأين الهاشميون؟ وهو موقف غريب جدًا في إهمال أهم الأحداث والمواقف، ورأينا في حديث خروج رسول الله ﷺ من بيته ليلة الهجرة فجوات واسعة لم تسدها الروايات، بل اضطربت فيها اضطرابًا واسع الأطراف، واعتمدنا حديث عائشة عند البخاري ووجدنا كثيرًا من الروايات تخالف هذا الحديث وهو في القمة من الصحة، وقد عالجنا ذلك معالجة علمية رددنا فيها المواقع إلى مواطنها من البحث.

ثم بدأنا الرحلة إلى المدينة آخذين بركاب رسول الله ﷺ وصاحبه وصدِّيقه أبي بكر -رضي الله عنه-، ولم نُغفل حادثًا من حادثات الطريق كانت له أهمية في معالم منهج الرسالة دون تحقيق روايته وبحث وقائعه.

وتجاوبت آفاق المدينة وما حولها بوصول النبي ﷺ إلى

قباء، وكانت اللهفة تحمل أهل المدينة إلى الخروج إلى مشارفها ليتلقوه ﷺ، وكان للقلم سبحات في وصف هذا اللقاء الأكرم من الرجال والنساء والأطفال، ونزل ﷺ حيث أنزله الله إلى أشرف بقعة من بقاع المدينة، وفيها بنى مسجده الشريف أول ما صنع من شيء، وقد أخذ بناء المسجد الشريف جولات من القلم فيها بحوث وتحقيقات أبرزت هذا المسجد كآية من آيات الله تعالى في تصوير معالم منهج الرسالة في بناء المساجد في العالم الإسلامي، ومقاصدها في بساطة بنائها وما يجب أن يكون فيها من مرافق إصلاحية.

ثم عقدنا فصلًا مطولًا للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة تكافلية في الترافق والتواصي والتواسي، وأبنّا موقف الأنصار من هذه المؤاخاة التكافلية، ذلك الموقف الذي سجله القرآن وبلغ به درجة الإيثار، وناقشنا مزاعم القائلين بالتوارث بين المهاجرين والأنصار، وأبطلنا ذلك بالأدلة التاريخية، والوقائع النقلية.

ثم جاء الجهاد القتالي بعد أن استنفد جهاد الحجة والمجادلة بالتي هي أحسن، وبينا أن المشركين هم الذين أشعلوا نار هذا الجهاد، وكان موقف النبي ﷺ منه موقف المدافع عن دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والخير.

وبدأت الغزوات والبعوث والسرايا وعقد الألوية والرايات لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإزالة العوائق من طريقها، وقد رأينا

أن استيعاب جميع الغزوات والبعوث والسرايا صعب جدًا لا يمكن تحقيقه مع حاجته إلى استغراق زمن طويل، فاخترنا أهم الغزوات للبحث والتحقيق، ووقفنا مع قضية أسرى بدر وما جاء في شأنها في القرآن من معاتبة على أخذ الفداء، وأبطلنا بالأدلة الواضحة مزاعم الذين أدخلوا النبي ﷺ في هذه المعاتبة، ثم قفَّينا على الموقف في غزوة أحد مبدأ ونهاية، وما كان فيها من أحداث وكوارث تحمَّل منها النبي ﷺ أعظمها، ثم وقفنا مع آيات العتاب التي نزلت بها سورة آل عمران، وحلّلنا الآيات تحليلاً أبان أنها من أعظم معالم منهج الرسالة في علاقة القائد الأعظم بجيوشه وكتائبه، ثم تابعنا بقية ما اخترنا من الغزوات، وفي كل غزوة مواقف مثيرة تعثرت فيها الروايات، فبذلنا جهدًا مضنيًا في تحقيق الحق، وعرضنا لقصة الإفك عرضًا كانت فيه آيات القرآن شمسًا بددت ظلام النفاق في هذه المسألة الشائكة، واستبعدنا -اعتمادًا على بعض القرائن والشواهد- أن يكون أحد ممن ثبتت له صحبة النبي ﷺ قد شرك في هذه الموبقة، ولم نزل نمشي مع الأحداث حتى جاءت معاهدة الحديبية، فأعطيناها حقها من التحقيق والبحث، وأعقبها الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة الذي بلغت فيه سماحة النبي ﷺ ذروة الفضائل الإنسانية.

ثم عرضنا لغزوة حُنَين وما كان فيها من دروس لتربية المجتمع المسلم ردت إليه كرامته وعزته، وأنزل الله نصره على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وكانت مكارم رسول الله ﷺ

في غنائم هذه الغزوة مع المؤلفة قلوبهم ومع ذوي الحاجة من عامة المؤمنين مما لا يستطيع القلم أن يحيط بوصفه، واتصل ذلك بغزوة ثقيف وما كان للنبي ﷺ من سياسة حكيمة أنزلتهم من حصونهم وافدين إلى المدينة ليسلموا ويبايعوا رسول الله ﷺ، وفي غزوة حنين كان للأنصار موقف تولى رسول الله بنفسه غسل صدورهم من آثاره.

ثم جاءت أعظم الغزوات جيشًا وأخطرها قَدْرًا في مقصدها وأعظمها تضحية، تلك هي غزوة تبوك، وفي روايات أحداثها تحقيق وبحث يرفعان راية الحق والهداية، وقد ذكرت الروايات أمورًا مختلفة في أسباب هذه الغزوة التي حشد لها النبي ﷺ طاقته البشرية، وبذل فيها أثرياءُ الصحابة وفقراؤهم أقصى ما استطاعوا من البذل في سبيل الله، وقد كان أبو بكر ذروة الباذلين فتبرع بجميع ما يملك، وقفاه عمر وعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان بن عفان هو المثل المضروب في البذل الذي لم يلحقه فيه أحد، كما أنفق الذين لا يجدون إلا جهدهم من القليل الذي في أيديهم ما طابت به أنفسهم. وقد ذكر رواة السيرة في سبب هذه الغزوة روايات مختلفة متضاربة، فناقشناها مناقشة نقد وتمحيص وبحث وتحقيق، ولم يثبت لدينا منها سوى إشارة في رواية، أمسكنا بها وشرحناها شرحًا بيَّنا به أن السبب الحقيقي لهذه الغزوة هو التطبيق العملي لعموم الرسالة، وتجريء العرب على الرومان والفرس، وقد

كان اسماهما كفيلين ببثّ الرعب في قلوبهم استعظامًا لقوتهما، وقد جعل النبي ﷺ هذا التطبيق العملي تفسيرًا لقول الله تعالى:

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾

وقد كانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله ﷺ، ثم توالت بعدها وفادات وفود من بقي متربصًا من قبائل العرب، وقد اخترنا من أحاديث هذه الوفود ما صحّت روايته وإن اختلفت الأساليب، وما رأينا فيه شيئًا من معالم منهج الرسالة الذي هو الهدف الحقيقي للكتاب، ثم اخترنا من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها - بعضَها مما رأينا فيه من دروس التربية للأمة ما يجعله جديرًا بالبحث والتسجيل.

ثم أفردنا لموقف اليهود من الإسلام ونبيِّه ومجتمعه بابًا في الكتاب أخرناه لنوحد الكلام على طوائفهم؛ لأن ما شبوا فيه وشابوا عليه ـ من الغدر وخيانة العهود والنفاق والتآمر والمكر والكيد والحسد ورجس العقيدة ـ كان على سمة واحدة في جميع طوائفهم، وقد أبرزنا في هذا الكتاب الكثير من خلائقهم التي عاشوا ويعيشون بها في المجتمع الإنساني، ورددنا مزاعم الذين لا تقبل نفوسهم تماثل الجزاء فيما جازاهم به النبي ﷺ على غدرهم به -وهو في دارهم- ونقضهم العهود ليأسه من صلاح حالهم.

ثم جاء الحديث عن الشمائل النبوية والأخلاق الذاتية لرسول الله ﷺ مع الناس والحياة، ولم نشأ أن ندخل في مضائق الافتراءات الكافرة والأباطيل الملحدة حتى لا نفتح نوافذ الجدل والمراء للذين طووا صدورهم على معاداة وإضعاف شأن المسلمين.

وبعد: فهذا إجمال يأخذ بيد من ينظر في سطوره إلى ساحة الكتاب الواسعة، ليقرأ متأنيًا، يخوض في لجج قضاياه ومسائله التي نالها التحقيق والبحث، وهي كثيرة كثرة تُوائم ضخامة حجم الكتاب في وزنه كمّا، وتلائم حقائق أحداثه ومعانيه كيفًا، عسى أن يجد فيه أهل العلم دافعًا يدفعهم إلى النظر والبحث في كتب التراث الإسلامي لتنقيتها من أوضاع الأضاليل التي أدخلها على هذا التراث أعداء الإسلام قديمًا، فقبلها أهل السلامة والاستسلام.

وهذا الكتاب لا يعطي زمامه إلا لمن يقرأ متحّرر الفكر، لا تخدعه الهالات والشهرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المؤلف

محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين سابقًا

بجامعة الأزهر

محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته

مقدمات ممهدات

فتح وتقديم

الحمد لله الذي اصطفى من ينابيع جوده نبع بدائعه، محمدًا أكمل الخلق روحًا وعقلاً، وأقومهم بدنًا ورسمًا، وأعلاهم قدرًا وذكرًا، وأرفعهم فضلاً ونبلاً، وأشرفهم مجدًا وعزًا، وأحسنهم خَلقًا وخُلقًا، وأصدقهم قولا وفعلا، وأصفاهم طوية وقلبًا، وأطهرهم نية وقصدًا، وأهداهم طريقًا وهديًا، وأرشدهم سلوكًا ومنهجًا، وأسدهم مسلكًا ورأيًا، وأنبلهم غاية ومقصدًا، وأكرمهم أصلاً ومحتدًا، وأعزهم بيتًا ومنبعًا، وأعرقهم أَرُومة وجمعًا.

أدبه ربه فأحسن تأديبه، ورباه فأكمل تربيته، آواه إلى كنف عزه في يتمه، وهداه من حيرة تعبّده إلى نور نبوته، وأغناه من عَيْلته فلم يحوجه لغير جوده، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علما ومعرفة، ورفع له ذكره فقرنه إعزازًا له في تحقيق الإيمان به بذكره، وجعل محبته شطر الإيمان، واتباعه عنوان محبته، فلا إيمان يقينًا لمن لم يكن محمد ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين، ولا إيمان يقينًا لمن لم يكن هواه تبعًا لما جاء به من الهدى والعلم، ولن يغني في قبول الإيمان اتباع مع جفوة. أولئك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة،

فالاتباع المرضي عنوانًا لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة لنبيه ﷺ، ومن هنا كانت طاعته طاعته، وهديه هديه، ورضاه رضاه، وبيعته بيعته، وصراطه صراطه، خلع عليه حلل فيضه، وألبسه خِلَعَ رأفته ورحمته، فكان الرءوف الرحيم بالمؤمنين، وكان المرسَلَ رحمة للعالمين، وخصه بالصلاة عليه، ومنح ملائكته - تشريفًا - هذا الفضل بين يديه، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلقوا بخلقه الأعلى في سبحات الصلاة عليه، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم وصائل روحه، لينعموا بجنات رده تسليمهم عليه، ولن يشقى من حظي من حبيب الله بردّ السلام عليه.

فصلوات الله، وصلوات الملأ الأعلى، وصلوات المؤمنين في عالم الغيب والشهادة أينما حل الزمان بهم في مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة، رسولاً لخير أمة كانت به بؤرة شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربانية، والسلام الأكمل الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

إطار البحث

وبعد: فهذه سبحات متطفلة في بحار أنوار سيرة الصادق الأمين محمد سيد الوجود ﷺ، تصور ملامح حياته تصويرًا يجري مع الأحداث والوقائع، لتكون طرازًا من الأسلوب في تحقيق معالم ما أبرزه التاريخ الصادق المصدوق من مظاهر الكمال الإنساني في حقيقته الإنسانية ﷺ، التي يستطيع العقل البشري أن يدرك

مشـاهدها في آفاق الواقع التاريخـي، دون اقتحام يتوثب الحجب تطلعًا إلى أنوار خصائصه الروحية وكمالاته النبوية ﷺ، فذلك ما لا يدركـه تصور، ولا يلاحقه خيال، فالبصائر في أودية خصائصه حسـيرة، والأبصار من دون وصفه كليلة، وقصارى غلوة الألسنة والأقـلام فـي هـذا المجال الوقـوفُ عنـد طاقتها فيمـا تمدها به العقول من رشحات نصوص الأحداث.

فهو ﷺ الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلفة في الأرض، تستمد الأجيال في أعصرها المختلفة من هديه نورًا يضيء لها آفاق الحياة ويشرح لها بِقَدْر ما يُطيق كل جيل من تحمل أمانة الله في إدراك الحقائق الكونية

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾

(النمل: ٩٣)

والحديث في سـيرته ﷺ عريض الجوانب، طويل المدى، واسع الآفاق، عميق المسـقى، غزير المادة، تسابقت الأقلام فـي حلبتـه، وتنافسـت الأفكار فـي ديباجتـه، فالقدمـاء من المؤرخيـن والرواة والعلمـاء حدثوا ورووا وكتبـوا ما تناهت إليهـم به الأحداث والوقائع من الحقائق، كما كتبوا غير ذلك من الأقاصيص التي لا تثبت للنقد والتمحيص.

تنوع رشحات الباحثين والكاتبين في السيرة المطهرة

وقـد تعـددت مناحيهـم واختلفـت طرائقهـم، وتباينـت مذاهبهـم، وجمعـوا فـي دواوينهـم الكثير مما نـاء به كاهل

التاريخ، فأطال بعضهم القصير، وكثَّر القليل، ودعم المتهافت، ولمَّ المنتثر، وضم المتفكك، واخترع ما لم يكن، وقص ما لُقِّن، وحكى ما روِّي، وكانت دواوينهم مراجع لمن جاء بعدهم، فالناقد الممحص تخير فكتب، والعليم البصير حقق وتثبت، والصحفي الغمر تلقف وأتلف، والمتعالم الجهول رمرم وضمضم، والجحود الكنود الذي طوى كشحه على مُسْتَكَنِّهِ من الحقد الأسود للإسلام والمسلمين في الغرب والشرق أشاح عن الحق وأعرض، وتولى وأدبر، وعشى عن ضوئه فأدلج في دياجير الأباطيل وأوغل وقال(٢) للحق وتقول، ونقل وتنقل، وزوق وبهرج، وزيف وهرج.

وكان في أغمار المسلمين سماعون لهم عُبَّاد لصنم جحودهم، فركعوا سجدًا بين أيديهم، وسجدوا أذلة تحت أقدامهم، تباهيًا بالعصرية، وتفاخرًا بالتجديد، وتظاهرًا بحرية التفكير، وتكلموا بلسان معبودهم، وكتبوا بقلمه، وترنموا بنغمه، ورقص على توقيعهم أتباع كل ناعق من ذوي الغرارة والجهالة، وفتن بهم ذوو الثقافة الفجة والمعرفة الضحلة، فتشابهت قلوبهم وتواءمت أفكارهم، وأعرضوا عن بينات التاريخ، وراحوا يحفرون بأظافر عقولهم الحاقدة في أرض الأكاذيب، ليتصيدوا من غثاء الروايات والأقاصيص ما يرضي أحقادهم، وتشبثوا بكل

(٢) هذا من قبيل قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾

ما يخدش وجه الحقيقة التاريخية زورًا وبهتانًا، وتأولوا بأهوائهم وسوء مقاصدهم أحداثًا كانت في السيرة المطهرة عنوانات على السمو والشرف والفضل والنبل، فقلبوا حقائقها، وغيروا معالمها، وفرطحوا أديمها، وأبدوا فيها وأعادوا، وآمنت منهم طائفة، وكفرت طائفة، غير أن المؤمنين منهم لم يستطيعوا التحرر الكامل من عبودية التلمذة للمستشرقين والمستغربين من أعداء الإسلام، ولكنهم وقفوا يتنازعهم الإيمان القاهر بالحقيقة الكبرى ممثلة في جوهر الأحداث والوقائع التي كانت عناصر الحياة في الواقع التاريخي لهذه السيرة الطاهرة المطهرة، وتنازعتهم الرغبة الملحة في التظاهر بالتجديد والعصرية وحرية التفكير، وتنازعهم القصد إلى (مقاربة) المنهج الاستشراقي في رفض كل ما يتعارض مع رغائبهم من روايات التاريخ وأحداثه، وتصيد كل ما يوافق أهواءهم، أو يشيد نظرياتهم في توهين شأن الأحداث من هذه الروايات، ولو كانت مغرقة في حمأة الأباطيل على ما هو دأبهم في تدوين وفهم الأحداث التي تضمنتها مراجع التاريخ للسيرة النبوية المشرفة.

ولكن هؤلاء المقهورين بالإيمان استطاعوا أن يُرضوا إيمانهم بمزيد من التحمس الإنشائي في أسلوب بالغ الروعة البيانية، بيد أن ذلك لم يعصمهم من تيار التشكيك، بل التكذيب لما لم يفهموا من حقائق الأحداث في إطارها من النظام الكوني التي وقعت متلبسة به، وفي كثير من وقائع

الإعجاز تشبثوا بمألوف العقول وقضايا العلم وسنن الكون العامة، وفي كثير من الأحداث الاجتماعية داروا وداوروا، ولفوا حول أنفسهم يغمغمون بالكلمات، ويجمجمون بالهمسات، ينظرون من طرف خفي إلى أساتذتهم وهم يغمزون بلذعات الحقد الأسود أديم السيرة المطهرة، توهمًا منهم أنهم يستطيعون أن ينالوا من الشمس في عليائها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)

منهج البحث وسنن الله العامة والخاصة

وعمود البحث في منهجنا هو ما أصَّلنا في كتبنا ومؤلفاتنا، ولاسيما التاريخية منها(٣): أننا نقرأ، ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحص ونمحص، ونوازن وننقد، ونعتمد ما تثبت لدينا صحته سندًا، ويدخل في وصيد القبول متنًا وأصلاً، ولم يعارضه من مدركات العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حدًا يقف عنده، ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصِّران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة، فكيف بعوالم ما وراء مظاهر الطبيعة في الكون؟!

وسنن الله العامة التي أقام على دعائمها نظام الكون

(٣) لنا في ذلك كتاب (خالد بن الوليد)، كتاب (عثمان بن عفان).

العام وترابط عوالمه ترابطًا متناسقًا تجري إلى جانبها سنن الله الخاصة التي تربط بوشائجها نظام بعض الأحداث عند مناسباتها متناسقة في وقوعها، وهذه وتلك محكومة بقهر القدرة الإلهية، واختيار المشيئة الربانية.

وحديث السيرة النبوية يجري في ثلاث مراحل متميزة بخصائصها، مترابطة بوحدة موضوعها.

مراحل الحياة في الاصطفاء المحمدي

المرحلة الأولى: هي مرحلة الإعداد الإلهي لتمهيد جو الحياة، وصهر العوامل المقومة لإبراز الحدث الجلل الذي يغير وجه التاريخ تغييرًا أصيلاً شاملاً، وهذه هي مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدد الإنساني من أعالي الذرى القدري إلى وادي الوجود الواقعي، وهي أيضًا مرحلة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة، التي جاءت لتصحح أغاليط الحياة في نظامها الاجتماعي، لتقيمه على دعائم التوحيد، توحيد الخالق، وتوحيد الإنسان، وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية والفضائل الإنسانية.

وتمشيًا مع منهجنا في البحث لم نبعد النجعة في تطلب الأرومات الواغلة في الدوحة الإنسانية في أفنانها العربية؛ لأن المعالم البعيدة مطموسة في مهايع التاريخ[٤]، وقد اكتفينا

(٤) المهيع: الواسع. (المجلة)

في البحث أن نجعل بدأنا من فنن نبعة محمد ﷺ القريبة التي انبثق منها غصناه الزهراوان، متتبعين تسلسل الحوادث التي تنتهي ذرى أعاليها إلى رائد الرسالات الإلهية الموحدة، خليل الله ورسوله أبي الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام، الذي كان محمد ﷺ في سلسلة نسبه واسطة العقد، ولؤلؤة الجيد، وجوهرة القلادة في ميراث صادق الوعد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ، حتى بلغ الكتاب أجله، وأشرق الوجود بنور محمد ﷺ وليدًا في مهد الاصطفاء الجامع لما يعرف من فضائل الحياة وكمالات البشرية.

وهذه المرحلة في تتابع سير الأحداث تمتد منذ ميلاد محمد ﷺ لمدى أربعين سنة عاشها محمد ﷺ إنسانًا أكمل ما يكون الإنسان، عربيًا في سمائه وأخلاقه وفواضله بين قومه، يقاربهم في كل ما يشدّه إلى القيم الخلقية النابضة بالكمال، وينأى عنهم صاعدًا في كل ما يخدش حياء الفضيلة، فكان فيهم المثل المضروب لأفضل الفضائل المقدسة في سجل الإنسانية، وكان بينهم نموذجًا يحتذى في مكارم الجبلة والتطبع، فهو منذ عرفوه وعرفهم (الصادق الأمين) والصدق والأمانة إطاران لأقدس محاسن الإنسان الاجتماعية في هذه الحياة؛ لأنهما مجمع الإحسان في الإنسان المدني بطبعه ورغائبه.

التاريخ يحط برحاله في مكة

لقد طالت رحلة الحياة على التاريخ وهو مستعبد مكبّل

بأغلال الطغيان (الإمبراطوري) في عالم الإنسان، ذلك الطغيان الذي أثقل كاهله بما حمله من أوزار وأضاليل تاهت في زواياها المظلمة الحقيقة العظمى، حقيقة التوحيد، وعقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد التي تنساب من ينابيعها جداول الحرية الاجتماعية للإنسان في تفكيره وعيشه.

وظل التاريخ مشغولًا بتجميع ركام الوثنية الحَطوط، في أمم عُمّرت الحياة دهورًا وأحقابًا، وهو يقول عنها في إعجاب أبله: إنها بلغت من العلم والمعرفة الذرى، وتربعت على قمة (الفلسفة) وتسنمت آفاق التفكير الإنساني، وقدمت للحياة أرفع قضايا العلم، وأعلى قمم الحقائق في المعرفة.

مع أنها عاشت حياتها في حمأة الوثنية الهابطة، فعند كل أمة من أمم الجاهلية الأولى عشرات (الآلهة) التي تعبد من دون الله، وتقرّب لها القرابين، وتنشب بينها الحروب المدمرة للشعوب باسم (الآلهة) من أجل شهوات الطغيان (الإمبراطوري) الذي كان يستغل هذه الوثنية (الداعرة) ليعبث في الأرض فسادًا باسم (الآلهة).

وتنبه التاريخ فاستيقظ من غمرات غفلاته، وحزَمَ تراثه وحمله على مناكبه، وسار به في سرعة خاطفة ميممًا مشرق الشمس، حتى إذا بلغ (الربوة الحمراء) في فيافي الجزيرة العربية ألقى عن كاهله أثقاله والجزيرة العربية يومئذ في عزلة موحشة ونسيان شرود، ولكن ضربات المخاض القاسية

التي كانت أنَّاتها تؤذن بانفراجها عن الحدث الجليل ذكّرت التاريخ بها، فذهب إليها وهو يلهث مكدودًا، وألقى بثقله في أحضانها، على ربوتها في أرض أم القرى، وغط في نوم قلق مليء بالرؤى وأضغاث الأحلام، رجعًا لصدى ماضيه السحيق.

وعلى صوت حفيف أقدام خافت في رمال الصحراء تيقظ من غفوته، فانبعث من مرقده متكاسلًا يتمطّى ويمسح عن عينيه رماص الكرى(٥)، وإذا به مع نفسه وحيدًا إلا من طفل في مهده يضغو(٦) من شدة العطش، وإلى جانبه امرأة رصينة مستور لهفانة، لا تستقر نظرتها على شيء، حتى على طفلها المتضاغي في مهده، كأنها تخاف أن تنظر إليه، بَيْد أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها، وتحرق كبدها كلما حرك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء، كأنه يطلب شيئًا أودعه له فيها حفيظ أمين.

وانفجرت الرمال عن الوديعة، فإذا هي (زمزم) عين لا تغيض!! وصَدَقَ إلهام (هاجر) حين قالت لأبي الطفل الذي جاء به مع أمه إلى هذا الوادي الأجرد اليابس: آالله أمرك بهذا؟ قال الخليل عليه السلام: نعم، ولم يزد، ثم ولى مسرعًا كأنه على موعد: إذن لا يضيّعنا.

أجل يا أم إسماعيل لن يضيعكما الله، وفي صلب وليدك وديعة الوجود، وهدية السماء إلى الحياة بمن فيها وما فيها.

---

(٥) الرمَصُ سائل أبيض تفرزه العين المصابة بالرمد. (المجلة)

(٦) الضغو صوت الإنسان عند الاستغاثة وصوت الذئب إذا جاع. (المجلة)

أجل يا أم إســماعيل، إن الله ســيجدد بوليدك صادق الوعد ديباجة الحياة، وســيخلع عليها من جلابيب الفيض السماوي ما يحول ظلامها نورًا، وجبالها مآذن، وهضابها منائر للهداية، ووديانها مساجد يتعبد في محاربها الموحدون، وآفاقها مراتع للحريــة الإنســانية، يرتــع فــي مســارحها المؤمنون بقداســة الحياة، وتتفلّق صخورها عن ســر الأسرار في هذا الوجود، عن النــور المخبوء في مشــكاة كنز الغيب، عــن كلمة الله وأمانته منذ كان آدم بين الطين والماء.

صبرًا أم إســماعيل، إن إبراهيم ـ عليه الســلام ـ خليل الله، وللخليــل مع الخليل مناجــاة ومصافاة، وفي المناجاة أســرار وأسرار، وفي المصافاة أضواء وأنوار، سوف تنفجر عنها رمال الحياة كما انفجرت عن (زمزم) رمال الصحراء.

أجل يا أم إســماعيل، لقد جيء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانــة الله إلى الحيــاة في هذا الوادي (الصديــان) لتكون الآية الإلهيــة أضخــم مــن تــراث التاريخ كله فــي فلســفته وعلومه ومعارفه وتجاربه وأنظمته منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة.

وافتر ثغر (هاجر) عن ابتســامة الرضى، وهي ترى واديها الأجرد المقفر يجذب إليه لثامًا من الناس، كانوا يمرون به من قبل فلا يجدون فيه أثرًا للحياة.

وشــب إســماعيل وترعرع بين أطفــال جُرْهُم وشــبابها عربيًا خالصًــا، ولما اســتوت رجوليتــه أصهر فيهم إلى ســيدهم، وجاء

إبراهيم خليل الله ـ عليه السلام ـ زائرًا ولده، ولقي إسماعيل أباه، وتحدثا حديث حنان الأبوة، ووله البنوة، وأفضى خليل الله إلى ابنه إسماعيل بسر الحياة في رمال الصحراء التي كان قد أودعه فيها مع أمه في هذا الوادي الأجرد ليؤديا أمانة الله إلى الحياة.

ونبأه بأمر الله في بناء بيته وقد بوأه الله مكانه من الربوة الحمراء، وبنى إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ (الكعبة المشرفة) بيتًا لله تعالى، ليكون رمزًا إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد في توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد، وتضرع خليل الله ودعا وأمّن إسماعيل أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

(إبراهيم: ٣٧).

وهذه ضراعة داعية تنساب من قلب خليل الله إبراهيم لجوءًا إلى أرحم الراحمين أن يجعل من هذا الوادي الأفيح المقفر اليابس بلدًا عامرًا بذرية هذا الوليد الذي جاء به إلى هنا وحيدًا إلا من أمه الراضية الوالهة ـ استجابة لأمر الله تعالى، ولمّا يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم في لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء في هذا الوادي المجيد، ولكن إلهام (الخُلةّ) في وحي

النبوة ألقى إليه كلمة الله في رسالة التوحيد، تلك الرسالة التي حاف عليها تاريخ المجتمع البشري، فلم تجد لها في تراثه إلا سَمَّ الخِيَاط منفذا تنسرب منه متسللة في مسارب الحياة.

وكانت هذه الضراعة الداعية دعوة عامة، تستهدف الاستقرار والأمن، وجلب الرزق لذرية إسماعيل، وتبرز ما استسرَّ وراء سجف الغيب من تجليات وأحداث تجعل من إسماعيل دوحة تلقي بظلال أفنانها على جنبات الوادي الأجرد، فتحيله حياة حية خالدة، تهوي إليه الأفئدة من أطراف الأرض، هائمة والهة بحب الحقيقة الكبرى في رمزها العظيم (الكعبة المشرفة).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٦، ٢٧).

واستجاب إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، وطهَّرا بيت ربهما الذي جعله مثابة للناس وأمنًا، طهراه من رجس الوثنية التي أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته في حياة المجتمع البشري، ونادى إبراهيم في الناس بالحج إلى بيت الله، وأبلغ الله النداء إلى أهله في عالمي الغيب والشهود، وأتوا من كل فج عميق ملبين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم، يتداولون عصرًا بعد عصر، وجيلًا وراء جيل، تحقيقًا لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

وتزاحفت القرون والعصور متواثبة، وهي تطوي بساط التاريخ، وتسوق الأجيال، جيلًا إثر جيل، وبلغت دعوة إبراهيم العامة مداها في الانتشار، وتكاثر ولد إسماعيل حتى كانوا غمرة العرب وجمهرتهم، وسادوا وتسيدوا وتشعبوا وتفرعوا، ملئوا السهل والجبل، ونزلوا الوديان وتسنَّموا القُنَن.[٧]

بيد أنهم إذ كثر عديدهم نسوا دعوة أبيهم إبراهيم وهم في غمرة الحياة الجاهلة، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد، وأوغلوا في وثنية بليدة، وجعلوا من (بَنيَّة) إبراهيم وإسماعيل المطهَّرة (متحفًا) لوثنيتهم، يضاهئون بها وثنية الفجور من قبلهم في أمم الفلسفة وتفكير الإشراك.

وتنفس الغيب، وبدت إشراقة الفجر الجديد ترسل أشعتها من أفق (الربوة الحمراء) وتعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى، رسالة التوحيد والعلم والطهر، علم الكتاب والحكمة، لا علم الهلوسة والفلسفة، ورتَّل القدرُ مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل في دعوته الخاصة بعد أن حقق الله له دعوته العامة، وكانت هذه الدعوة الخاصة هي ميراث الحياة في خُلَّة الخليل، والعنوان المشرق في ملته الحنيفية والكلمة الباقية من نبوته

(٧) القُنة: الجبل الصغير (المجلة).

ورسـالته، وجـاءت هذه الدعـوة متوافقـة تمام التوافـق مع نَفَس الغيب في إشراقة الفجر، وتكلم الله جل جلاله، وعز سلطانه على لسان خليله يلهمه سر الوجود في ضراعة خاصة يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٩).

يقـول الإمام ابـن كثير: " وقد وافقت هذه الدعوة المسـتجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن" .

وحان الحين، وكانت كلمة الله الخاتمة الخالدة في اصطفاء منابع السـر الأعظم من دوحة الإنسـانية، واستخلاص ثمرتها فـي معنى كلمة الله، وجاء التعبيـر البياني عن ذلك الاصطفاء على لسـان المصطفى مصدقًـا لما بين يديـه «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشـم، واصطفاني من بني هاشم فأنا دعوة أبي إبراهيم»(٨) ، وكان خلاصة (الخُلَّة) في نبوة الرسـالة الخالدة من إسـماعيل صادق الوعد محمدًا الصـادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين بين يدي الساعة خاتمًا للنبيين.

---

(٨) الحديث إلي قوله (واصطفاني من بني هاشم) في صحيح مسلم. (المجلة)

تمهيد

الرسالات الإلهية والعقل الإنساني

العقل هو المرشد الأول

مكان الرسالات الإلهية من الحياة مكانُ العقل الإنساني من أفراد البشر والعقلُ هو المرشد الأول للإنسان، يهديه إلى سواء الطريق، وينير له ظلمات الوجود، ويفتح له مغاليق الكون، ويسدده في مسيره ضاربًا في بيداء الزمن حتى يقضي ما قدّر له من بقاء.

وعلى قدر استعداده الفطري يكون كسبه من تجاريب الحياة، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد في الجماعة ومكانته منها، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد في إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعدًا في مدارج الرقي والكمال.

وإذا كانت الحياة لم تعرف حدًا لرقي الفرد في الجماعة البشرية ينتهي إليه، فأَحْرِ ألا يكون للجماعة نفسها حد تقف عنده في رقيها، فالحياة متجددة، والمعارف الإنسانية متزايدة، والعقل البشري دائب العمل، وخزائن الكون لا تزال مغلقة، وأسراره ما برحت محجبة وحقائقه ما فتئت مجهولة.

وكيف يقف رقي الفرد أو الجماعة عند حد ومهمة العقل في الحياة هي كشف تلك الأسرار الكونية، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها في إفادة الإنسانية؟ ومن الغرور العقلي

أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقرّبه من الكمال المقدور للبشرية، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جدًا مما عُرف، والذي عُرف لا يزال الكثير منه مستخدمًا في الحياة على غير جهته التي تفيد منها الحياة، فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات.

بيد أن هذه المعارف العقلية التي لا تنتهي عند حد في الأفراد والجماعات هي في الواقع المشهود محدودة المنزع، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون.

دور الرسالات الإلهية في قيادة العقل

وهنا يأتي دور من أدوار الرسالات الإلهية في قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطبوعها ومداخل الوجود وبواطن الحياة، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها، إلى الخالق - جل شأنه -، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وهيمنة إرادته، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدل - بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسنن متوافقة، ومنافع متتابعة - على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسانه وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره.

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسالات الإلهية إلى مخاطبة العقل لتوجيهه إلى تعرُّف جلال الكون وعظمة الوجود وخطر الحياة، ليقف منها على وشائج التكوين والإبداع التي تصل

المخلوق بالخالق، وتربط بين أجزاء الوجود، وتكشف عما طوي فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية.

وكلما اتسعت معارف العقل عن حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوي سلطانه في تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنساني، ويرقي عناصره، ويدعم قواه، ويهيئ أمامه الفرص للتغلب على احتمال أعباء الحياة في ثقة واطمئنان.

وليس العقل الإنساني بمعصوم من الزلل والخطأ، بل ربما كان من الحق أن يقال إنه كثير الخطأ والزلل، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لدواعيها وخضع لسلطانها فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبدًا لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه في طريق أغراضها، وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها في تلوين الحياة كما تشتهي وتريد.

سطوة الغرائز أشد عرامة من قوى العقل

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى في الأفراد والجماعات من سلطان العقل، ويدل على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل، وأسلس قيادًا في يد الغرائز منها في يد العقل، والغرائز في الإنسان شبيه بعضها ببعض في مطالبها وغاياتها، ولكنها تختلف في الأفراد قوة وضعفًا وظهورًا وكمونًا، وليس العقل الإنساني على هذا الغرار في أفراد الإنسان، فهو مختلف فيهم أشد الاختلاف، وقلما يتفق عقل وعقل، فاتفاق الغرائز في الغايات يكسبها قوة في مطالبها

وتنفيذ أغراضها، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها، ومن ثم نراها تشتط في تنفيذ رغائب الجسد وتحاول أن توجه قوى الحياة - حتى العليا منها - إلى مقاصد مادية، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادي وقضاء شهوة جسدية، فالظلم والقسوة والأثرة - في لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء - تساوي العدل والرحمة والإيثار في كثير من الأحايين والأوقات.

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلبت على العقل كيفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتًا من لغتها حتى تصبح القوة الغاشمة هي الميزان الأعلى في شرعة الحياة، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوبًا على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران، أو موضوعًا على بساط من سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء، وهذا هو المنبع الذي نبعت منه المذاهب المادية الملحدة منذ قامت الحياة.

وهنا يأتي دور آخر للرسالات الإلهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها في صورة تخضعها لموازين الأخلاق، وإعطاء الفضائل قيمتها في الحياة ووضع الرذائل في مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة في أعمال الأفراد والجماعات بمقياسها

العادل الذي لا يعرف الغش والخداع[٩].

عمل الرسالات الإلهية في دورها الأول مع العقل

فالدور الأول للرسالات الإِلهية دور قيادة وتعليم، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا، فهي التي تنبئ عن الغيب وتكشف عن حقائق كلية في صور واقعية وأمثال تقربها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته، وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته، وعن عوالم السماء والأرواح، وعن الوحي والنبوة، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب.

ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكًا يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال؛ لأن الغيب محجوب عن الحسّ، والحسّ بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل، فيتهدي إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه، ومن هذه

(٩) في صدد تحديد موازين الأخلاق قد تَعْرض للباحث هنا مشكلة يراها بعض الباحثين الاجتماعيين من أعوص المشاكل، تلك هي مشكلة تحديد حقائق الفضائل بتحديد يميزها عن الرذائل، وهل ذلك من مهمة العقل وحده، أو له في ذلك شريك؟ وأي شيء هو ذلك الشريك؟ أو أن العقل لا شأن له في ذلك، ويجب أن ينحى عن هذه المرتبة، وإذا أبعد العقل عن هذا المجال فأي كائن هو الذي توليه الحياة ثقتها؟ ولا يمكن أن يكون ذلك الكائن هو الغرائز وقد عرف شأنها، بيد أن جميع أهل الأديان والملل يطمئنون كل الاطمئنان إلى أن مرجع ذلك هو الرسالات الإلهية.

الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعًا مباشرًا أو غير مباشر.

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون خاضعًا للرسالات الإلهية، آخذًا عنها، وهي التي تمده وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل، وإذا تأبى عليها وقع في أغلال الغرائز، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصب المعارف العليا في قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير، وتاريخ الفلسفات والأديان مليء بالشواهد الصادقة على ذلك.

مؤاخاة العقل للرسالات الإلهية

أما الدور الثاني للرسالات الإلهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته حتى يتغلب على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها، ويطامن من غرورها، ويقلل من اندفاعها، ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها أو انطلاق يفسدها.

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات، وتحديد علاقة الفرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالجماعة، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء، وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطي كل ذي حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواسي والمحبة والإخاء.

والعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته، والرسالات

الإلهيــة هي المرشــد العليم، والمستشــار الأميــن، والناصح الحكيم، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل في طريقه مؤديًا واجبه على أكمل وجه في الحياة.

التدرج في مراحل الحياة من خصائص العقل والرسالات الإلهية

ولقد مرت الإنسـانية بأطوار متعـددة اختلفت عليها في تلك الأطـوار الرسـالات الإلهية فكانت فيها معالـم للتاريخ على تلك الأطوار، وكانت كل رسـالة مبدأً لطور ونهايةً لآخر وقد احتفظت تلـك الرسـالات بخصائـص ومميزات هـي في الواقـع خصائص ومميـزات الأطـوار التي سـايرتها، ومن تلك الخصائـص يُعرَف نصيب العقل الإنساني في تلك الأطوار، فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرج في طريق الاكتمال.

وكما مرت الإنسانية في مرحلة الطفولية الغريزية محكومة بالغرائز المنطلقة، مر معها العقل الإنسـاني في هذه المرحلة منطلقًا مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة، وجاءت الرسـالات الإلهية فـي هذا الطور تومـئ إلى الحقائق العليا ولا تفصح، وترمز ولا تصرح، تمشيًا مع طاقة الإنسانية السـاذجة وحالة الطفولة التي يمّر العقـل بها في مرحلتها في هذا الطور من أطوار التاريخ البشري.

واستعراض الصور الجدلية التي يقصها التاريخ وتحدثنا بها كتب الرسـالات الإلهية عن أوائل الأنبياء والرسل ومتقدميهم

فـي الزمن كنـوح وإبراهيم وهود وصالح وشـعيب مع أممهم تدلنـا علـى أن العقـل البشـري وقتئـذ كان مدَّثـرًا فـي مهاد الطفوليـة، محاطًـا بالغرائز تهدهـده حتى يظـل نائمًا لصيقًا بالأرض محجوبًا عن السماء.

وقـد يكون هـذا هو السـبب فيما يقع من الوهـم في صلاحية العقل وحده لإدراك الحقائق العليا إدراكًا مباشرًا دون اعتماد على الحس، ولعل هذا الوهم يستند إلى تاريخ الفلسفات القديمة التي أطلقت للعقل أعنة السبح فيما وراء الطبيعة: في الخالق ونعوته، وفـي عوالـم الأرواح والملائكة والأفلاك والسـموات وفي الحياة وطريقـة صدورها عن الله تعالى. ولا شـك أن هـذه حقائق عليا لا سـبيل لتدخـل الحس فيها، بل اسـتقل العقل في خـوض بحارها فغرق في أعماقها، ثم طفا وفي يديه قضايا ومعارف آمن بها وأقام عليهـا صـرح أعرق فلسـفاته القديمة، وهي الفلسـفة الإغريقية التي ثقفها فلاسـفة الإسـلام في المشـرق والمغـرب ففُتنوا بها وكان عليها معولهم، وهاهو ذا العلم التجريبي وفلسـفات العقل المتوثب وقد زعزعا أركان تلك الفلسفات القديمة.

قد يرى التاريخ أن الفلسفات أصلها رسالات إلهية حرفت

ونحـن إذا تجاوزنـا عن قول بعـض مؤرخي الفلسـفة القديمة كالقفطي: إن الفلسـفة الإغريقية وليدة الفلسـفة المصرية وهذه الفلسـفة المصرية اعتمـدت في أصلها على بقايا من الرسـالات الإلهية كرسـالة نبي الله ورسـوله (إدريس) - عليه السلام -، وهو

الذي تسميه الفلسفة (هرمس) فيكون ـ حينئذ ـ العقل فيها غير مستقل، وليست هذه القضايا من عمله وحده، بل اعتمد في أصلها على نبوات الرسالات الإلهية، إذا تجاوزنا عن ذلك ـ رغم أننا لا نجد سندًا تاريخيًا يصحح رواية القفطي فإننا لا نفقد أثر الحس واضحًا في كثير من قضايا هذه الفلسفة، وحسبنا أن نلقي نظرة على أهم قضاياها عند أبرع فلاسفتها، تلك هي قضيةً (الإله) الخالق عند (أرسطو) فسوف نجد عمل الحس هنا سابقًا على عمل العقل، ولعل نظرية (العقول العشرة) التي فتنت بها هذه الفلسفة تعطينا صورة عن عمل الحس وقياس الغائب على الشاهد، وهذه النظرية (العقول العشرة) التي ابتدعها أرسطو ـ أبرعُ فلاسفتهم ـ تعتمد على وجوب الوسائط في الخلق والتكوين، وهذا من آثار عمل الحس في التفكير.

وكان هؤلاء الرسل الكرام يضيقون ذرعًا بهذه البلادة العقلية، وذلك التعبد الذليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة وتستهدي بها في أغراضها، وتستوحي الأرض في تحقيق مطالبها، وتتصامم عن سماع صوت السماء، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن منافذ الأمل قد سدت، وأبواب الرجاء في تخليص العقل من سلطان الغرائز وسيطرتها قد أوصدت لم يبق لهم إلا طلب التطهير العام بإفناء هؤلاء الميئوس من هدايتهم وتحرير عقولهم، تطلعًا منهم إلى طور إنساني جديد، يتجدد به ميلاد الإنسانية بعقل يشُبُّ عن الطوق، وتتهيأ له

وسائل التغلب للتفلت من أغلال الغرائز، مستعدًا لفهم لغة فوق لغة الحس، تتحدث عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق.

لم يخل العقل الإنساني من ومضات في إدراك شيء من الحقيقة الفكرية

ولقد كان للعقل الإنساني ومضات في هذا الطور من أطوار الحياة: إذا أنبهته الرسالات الإلهية تنبَّه، وأشرقت آفاقه بنور الحق في سرعة خاطفة، أما إذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه، وعاد كأنه لم يبصر من الحق والهدى شيئًا.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في قصة إبراهيم رسول الله وخليله - عليه الصلاة والسلام -:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ
جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ

يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ
﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ
لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٥١ - ٦٥)

وهــذا تصوير بارع لمغالبة الطبيعة المادية القائمة في جبلة هؤلاء الوثنيين الملحدين للعقل الحبيس في أتون الغرائز، مع قارعات الحجج الإلهية وداويات النذر، فلم يبق أمام الرسـالة الإلهيــة إلا الأسـف الحزين على إهدار كرامـة العقل الذي بدأ يشب على رقدة المهد.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٦، ٦٧)

وفــي هذا الطور مــن أطوار الحيــاة حفل التاريخ الإنســاني بأعمـال عقلية، سـجلها فيمـا ادخره من فلسـفات كانت في نظره حقائق فكرية.

موقف العقل من شريعة التوراة وحامليها

وفي هذا الطور بدأت الرسـالات الإلهية تمزج بين الحقائق الكلية الإلهية والحـوادث الجزئية التي تحيا مع الناس ويحيا

الناس معها. وجاءت شريعة التوراة تتحدث عن الله تعالى، وعن الكون والخلْق، والأنبياء والرسل، وعن الوحي وعن الملأ الأعلى مما لا يدركه الحس، وتتحدث عن حياة بعد هذه الحياة وعن الثواب والعقاب، وعن علاقة الناس بالخالق، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونحو هذا من التشريع الذي لم يعهد في شرائع الرسالات السابقة.

بيد أن أسلوب التوراة في التعبير عن ذلك كله كان أسلوبًا قائمًا على الاستعانة بالحس، وتغمره الأمثلة والصور الحسية، ويقلّ فيه التجريد، بل يكاد ينعدم، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الغريزية المستخفية في الطبيعة الإنسانية، ذلك الأثر الذي كان يطفو أحيانًا على سطح الحياة في غفلة من العقل كفقاعات الهواء الفاسد التي تتنفس عنها مستنقعات النزيز.(١٠)

وكان مظهر ذلك جيل بني إسرائيل، فهو جيل عرف من المعارف العليا كثيرًا من الحقائق، وخاطبت فيه الرسالات الإلهية العقل - على ظلمه عندهم - وشرعت له، وهو نفسه الجيل الذي تبلد وأنكر كل معارفه العقلية في لحظة استعلى فيها سلطان الغرائز على العقل فحجبه عن السماء، وشده إلى الأرض، فنسي حتى تنكر لماضيه القريب.

(١٠) النزين: الشهوة. (المجلة)

تصوير القرآن الحكيم لموقف اليهود من العقل

والقرآن الحكيم يصور ذلك كله تصويرًا بارعًا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(الأعراف: ١٣٧ - ١٤٠)

فانظر.. ليس إلا مجاوزة البحر بهم ناجين من فرعون وعذابه، وكانوا قبل تلك المجاوزة المثلَ المضروب لعالم زمانهم في عرفان الحقائق العليا من توحيد الله ونعوت كماله وعوالم الغيب مما هو وراء الطبيعة، فنسَوا كل شيء من هذه المعارف، وطُمِس على عقولهم فعادوا كأخبث ما كانت طبيعة مظلمة، وكأحط ما كان عقل سجينا، وكأبلد ما كانت أمة من الناس، وكأجهل ما كان جيل في تاريخ البشرية.

أما ما جاءت به التوراة إليهم من التشريعات الجزئية

للحــوادث الواقعة فــي الحياة، فقــد أحالته غرائزهــم المادية المســعورة إلى رســوم اســتغلالية لا تقيم وزنًا للقيم الخلقية، ولا للفضائل الإنسانية، ولم يبق ـ عند تطبيق هذه التشريعات ـ فيصــل بين فضيلــة ورذيلة، وأصبحت الحيــاة ـ في نظرهم ـ متجرًا للاستغلال والمرابحة، كأنهم ولدوا بغير قلوب وخلقوا بغير وجدان، فليس بين أحضانهم رائحة للعواطف الإنســانية في معاملة الناس من غير جنسهم، بل من أنفسهم.

تبلور حاجة الإنسانية إلى شريعة رحيمة

ومن ثم كانوا ـ وكانت الحياة من أجلهم ـ في أشــد الحاجة إلى (ثــورة) عاطفية حنون تنبع من وجدان مليء بحب الحياة وحــب الأحياء (ثــورة) تعرف الحــق وتقدســه، ولكنها تلفه فــي غلالة الإيثار، وتعــرف العدل مقدرًا جلالــه ولكنها تغلفه بالرحمة الحانية، وتعرف الإخاء وشــيجة بين أبناء الإنســانية قاطبة، ولكنها تجعله مودة موصولة بالتسامح والسماحة.

(ثــورة) تقوم في داخل كل نفس إنســانية، يســمع صوتها القلــب والعقــل وهي تقلــب الضميــر ظهرًا لبطــن، وتعرضه لشمس الحياة كما يعرفها الناس، عسى يستطيع أن يصنع من غلاظ الرقاب قســاة القلوب والأكباد، أناسًا يعيشون في دفء الشمس كما يعرفها سائر الناس.

وكان الله رءوفا رحيمًا، فجاءهم بعيســى الميسح ابن مريم ـ عليه الســلام ـ، روحًا مــن الله وكلمة رحمته الــودود، وأنزل

عليه الإنجيل ترنيمات عاطفية باكية، ترمي بدموعها إلى مداخل قلوبهم لتطهرها من رجس غرائزهم المادية المظلمة، وتكفكف من غلواء نفوسهم الجامحة.

ولكن طبيعة اليهود لم تألف السماحة وتعاطف الرحمة، فمسخوا ترنيمات الرحمة الإنجيلية إلى وثنيات ترابية، فلسفتْها لهم غرائزُهم في صور مادية بعيدة كل البعد عن آفاق التفكير العقلي، بله التراحم العاطفي، فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق تضليلا وافتروا على الله الكذب، وجعلوا من المسيحية مسخًا غامضًا لا تسيغه العقول.

رجاوة العقل في رحمة السماء بإمداده بشريعة كاملة في روحها وماديتها

ووقف العقل وحده في مكانه من الحياة، يتطلع مشدوهًا في رجاء وأمل إلى السماء يستهديها الرشد، ويسترشدها الهداية، ويسألها في ضراعة أن تمده بمددها في رسالة إلهية كاملة شاملة، توائم نضجه ورشده، تعرف الحق والعدل، وتتخذهما أساسًا لبناء الحياة الكريمة، وتعرف السماحة والرحمة، وتجعلهما أساسًا لبناء حياة الإخاء الإنساني، وتعرف قبل هذا وذاك فطرية العقيدة التي تعتمد في معرفة الله فاطر السماوات والأرض على دراسة الكون في غير غموض ولا تلبيس، ولا تغمض عين العقل على قذى فلسفات جوفاء، ولا تقبل عليه وصاية من خارج تفكيره، بل تمنحه حرية الانطلاق

الكامل في كل ما تملك قوتُه العملَ في مجاله، وتحجزه حفاظًا عليه من متاهات الاسترسال فيما لا يستطيع ولا يطيق من عوالم الغيب التي لا تخضع لسنن البحث والتفكير، وإن كان الإيمان المطلق بها يعتمد على مقدمات تخضع للبحث الذي يجعل من نتائجها قضايا يطمئن العقل إلى الإيمان بها كإيمانه بأية قضيةٍ بحثٍ من قضاياه.

وكان الله عليمًا حكيمًا، فأنزل القرآن الحكيم تبيانًا لكل شيء، وأرسل به نبيه محمدًا ﷺ، وختم به رسالات السماء، وأبان فيه مكانة العلم والمعرفة، وجعل للعقل قيادهما، ومن هنا كان (العلم) بأوسع معانيه هو المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة. وفي ذلك يقول خاتم النبيين محمد ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».(١١)

(١١) الحديث في صحيح البخاري. (المجلة).

البيئة الطبيعية والاجتماعية لحياة محمد ﷺ

الخصائص الطبيعية للجزيرة العربية:

البيئة الطبيعية لحياة محمد ﷺ هي الجزيرة العربية كلها بوجه عام، سماؤها وأرضها، شمالها وجنوبها، جبالها ووديانها، نجودها وتهائمها[١٢]، وهي بوجه خاص شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز، وهي بوجه أخص (مكة) من أرض الحجاز.

والتاريخ الطبيعي عرف للجزيرة العربية في جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال، وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز، وخصائص امتازت بها مكة في موقعها من أرض الحجاز.

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرِّقة بين شمالها وجنوبها آمادًا طويلة، وأحقابًا متعددة، تدخل مع التاريخ في أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التي لم تتبين له معالمها، ولم تزل تمخضها الحوادث وتُدافعها الأحداث، وتمر مع الزمن في أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال، فمزجته به في خصائصه حتى صار كأنه هو، جدبًا وشظف عيش، وقسوة

(١٢) التهائم جمع تهامة والتهامة ضد النجد والنجد ما ارتفع من الأرض. (المجلة).

طبيعية، وجفوة حياة وإكفهرار منظر، وعبوس جو، ولفح سَموم[13]، وكثرة تقلبات، وقلق إقامة، وتطلعًا إلى السماء رجاء غيث، وتوثبًا في أرجاء الأرض طلبًا لمرعى أو قطرة ماء.

وهي بعد ذلك بيئة تدَّرِعُ الليل، وتأنس بالوحش، وتستضيء بالنجوم، وتَطْرب لصوت الرعد، يكنفها فضاء لا نهاية له، وتظلها سماء لا تستقر على حال، تصفو مرة فتُلْمَحُ بالليل نجومُها! وتضحى بالنهار شمسها، وتغيم مرة فيسود أديمها وتتوارى كواكبها وتحتجب شمسها، ويكفهر أفقها، ويتجهم منظرها، أكنافها الجبال ومسارحها الوديان، لا صناعة تشذب من مظاهرها، ولا زراعة ترفِّه من جوها، وكل الأمل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة لتحيا عليه قطعان من إبل وشاءٍ عليها قوام تلك البيئة القاسية.

وقد شهر ذلك عن الجزيرة العربية حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان فزهدوا فيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين، (يحدثنا ابن هشام في السيرة: إنه لما طال بلاء الحبشة عى أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري، حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويَلِيهم هو، ويبعث لهم من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه[14]، فخرج

(١٣) السَّموم الريح الحارة (المجلة).

(١٤) يشكه: مضارع أشكاه إذا أزال شكايته.

حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان: إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك ففعل فأدخله على كسرى، فقال له: أيها الملك غلبَتّنا على بلادنا الأغربة، فقال كسرى: أي الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك تنصرني ويكون مُلْك بلادي لك، قال كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشًا من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك).

***

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة والحوادث الهائلة التي انتابت الجزيرة العربية في مدى الأحقاب المتوغلة في مجاهل التاريخ، تجمعت من أرجائها كلها وتلاقت في شمالها من أرض الحجاز، فكانت ـ فوق أنها خصائص الجزيرة كلها منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال طلبًا للعيش عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن ـ هي في الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ.

مكة المكرمة ومكانتها

مكة في سماتها الطبيعية صورة صادقة لبيئة الجزيرة:

أما (مكة) بلد محمد ﷺ وبيئته اللصيقة به فسمها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التي كانت موئلًا لاستقرار قبيل من الناس يضطربون فيه طلبًا لوسائل الحياة والعيش، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته، ويظهر أن أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور، والقرآن الكريم أطلق عليها (بلدًا) وسماها مرة (قرية) ومرة أخرى سماها (أم القرى) وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم (المدينة). ومهما يكن من أمر ذلك كله فإنها منذ كانت فهي عاصمة الحجاز غير منازعة ولا مزاحمة، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها (أم القرى) وأدنى إلى ما عُرف لها من مكانة واحترام قبل البعثة المحمدية وأشبه بما صارت إليه في الإسلام من منزلة دينية واجتماعية(١٥).

تلك المدينة التي كانت مسقط رأس محمد ﷺ، وموطن أسرته، ووطن قبيلته، وصفها القرآن على لسان خليل الله إبراهيم -عليه السلام- بأنها ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ فيما حكاه الله عنه بقوله:

---

(١٥) القرية في القرآن اسم للتجمع العمراني، والمدينة اسم للتجمع العمراني الذي يخضع لسلطة، ولو عادة ملتزمة. (المجلة).

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم : ٣٧)

وهذا أصدق وصف وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية، فكلمة (واد) تصور أتم تصوير وضعها من الأرض، فهي منخفض تحيط به الجبال، وكلمة (غير ذي زرع) تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء، فهي لا تكاد تجود به نبعًا، وإذا جادت به غيثًا تفرق في غير كبير فائدة، وتعطيك نتيجة لذلك جدوبة الأرض وقحولتها، وتعطيك يبس الطبيعة وقسوتها، وتعطيك شظف الحياة وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو، ولفح السموم، وهو وصف في جملته يُدخِل على النفس يأسًا، قلّما أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد، أو سببًا من أسباب الكسب الربيح في هذا البلد السجين بين شاهقات الجبال.

تدارك العناية الإلهية لمكة وصيرورتها حرمًا مقدسًا

لكن (مكة) بلد محمد ﷺ لم تستسلم للطبيعة تحبسها في واديها الأجرد، بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلهية فأهدت إليها (الكعبة) بيت الله الحرام، فصارت بها (مكة) بلد الله الحرام، وكان الذي أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل، وإبراهيم جد العرب الذي تنتهي إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم، وقد تعرَّب منذ كان، فلم يعرف غير العرب شعبًا ولا غير جزيرة العرب وطنًا، ولا

غيـر (مكة) بلدًا – كما روى البخـاري – فحفظ الأبناء تراث الآبـاء، ورعى الأحفاد ذخيـرة الأجداد، وعظَّـم العرب كلهم (الكعبـة) بيت جدهم إبراهيـم وأبيهم إسـماعيل، وعظموا لتعظيمها (مكـة) واتخذوها حرمًا آمنًا يقدسـونه ويتحامون فيه المآثم وينزهونه عن وقوع المظالم، ويؤَمِّنون فيه الخائف، ويجبرون الكسـير، وينصرون المظلوم، ويخافون الظلم فيه، روى ابن هشام أن سمية بنت الأحب قالت لابنها خالد بن عبد مناف الكعبي تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها:

أبُـنـي لا تـظـلـم بـمـكـة لا الـصـغـيـر ولا الكبير
واحـفـظ مـحـارمـهـا بُـنَـيَّ ولا يـغـرنْـك الـغـرور
أبُـنـي مـن يـظـلـم بـمـكـة يـلـق أطـراف الـشـرور
الله أمـنـهـا ومـا بـنـيـت بـعـرصـتـهـا قـصـور
والله آمـن طـيـرهـا والـعُـصْـمُ تـأمـن فـي ثـبـيـر(١٦)

يحجـون إليها ويجتمعون في مواسـمها، يتعبدون ويتجرون، ويجلبـون إليهـا الأرزاق والسـلع ويتبادلـون ذلك فيمـا بينهم، فيصـدر عنها من ورد بغير مـا ورد، ويرِدها من صَدَرَ عنها بغير ما صـدر، ثم اتخذوها منارًا لإذاعـة مفاخرهم ومحكمة لتحاكُمهم، وملجـأ لضعفائهم، ومـلاذًا يلوذ به أصحاب التبعـات والجرائر منهـم، ومصدرًا لمحالفاتهـم وتعهداتهم، ووضعوا لذلك سـننًا

(١٦) والعصم الوعول. وثبير جبل في مكة. (المجلة)

متبعة لا يحيدون عنها، ونظامًا مأثورًا يأثره الخلف عن السلف، من غيَّره أو انتهك حرمته فقد جاء بإحدى الكبر.

وهكذا أصبحت (مكة) شيئًا آخر غير كونها واديًا أجرد محصورًا بين الجبال، أصبحت متعبد العرب قاطبة، تهفو إليها قلوبهم تحنثًا فيها وتعبدًا بالطواف حول بيتها المحرم، يقدسونها تقديسًا لا يفوقه تقديس، ويُفْدون بيتها المعظم بالمهج والأرواح، روى ابن هشام أن أبرهة الأشرم - وكان واليًا على اليمن من قبل النجاشي - كتب إلى النجاشي يقول له: إني بنيت لك - أيها الملك - كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النَّسَأة - قوم من العرب كان لهم النسيء في الأشهر الحرم - فدخل كنيسة أبرهة وقذَّرها، فلما بلغ ذلك أبرهة سأل عنه: من فعله؟ فقيل له: رجل من العرب، من أهل هذا البيت الذي يحج العرب إليه بمكة، فحلف أبرهة ليسيرن إلى هذا البيت حتى يهدمه وتجهز لذلك، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًا عليهم.

تلك هي صورة مجملة تصور البيئة الطبيعية التي ولد فيها محمد ﷺ، والتي عاش بين أحضانها، وتلك هي خصائصها العامة والخاصة.

***

البيئة الاجتماعية ثمرة البيئة الطبيعية

أما البيئة الاجتماعية التي نهد محمد ﷺ بين أعطافها، وشب في مدارجها، واستوى رجلاً في مجامعها فهي البيئة العربية التي تشمل جميع الشعوب والقبائل والبطون والعشائر ممن سكن الجزيرة العربية في جنوبها وشمالها، وتكلم بلغة العرب، ودان بأديانها، واعتقد عقائدها وتخلق بأخلاقها وتسنن بعاداتها، وتأثر بمن خالطها من الأمم والجماعات التي طرأت بتراثها الاجتماعي على جزيرتها، فهي أوسع مدى، وأشمل أثرًا من البيئة الطبيعية؛ لأن خصائص البيئة الطبيعية مظاهرُ جامدة ترتبط بالأرض والسماء، والخصب والجدب، والجو والطبيعة، أما خصائص البيئة الاجتماعية فهي انعكاسات لمظاهر البيئة الطبيعية تظهر صورها وآثارها حية في الإنسان الذي عاش فيها وتقلب في أنحائها يتسبب لمعاشه، فهي على الحقيقة مجموعة أخلاق الناس وطبائعهم وعقائدهم ومظاهر حياتهم فيما يغلب عليهم من وسائل الحياة في صناعة أو تجارة أو زراعة أو استثمار حيوان، وما يتولد عن التنافس في ذلك من حرب أو سلم طلبًا للمغالبة دفاعًا عن البقاء، وأثر هذا في الأفراد والجماعات.

العقيدة أهم مظاهر البيئة الاجتماعية

وأول مظاهر البيئة الاجتماعية وأعمها مظهرًا العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من مناسك وتعبدات، وعنوان ذلك عند

العـرب قاطبة هو الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشـجار والأحجار، وهي وثنية جامدة بليدة في شـكلها وموضوعها، لا تتفلسف ولا تتعالم، ولكنهـا تقوم علـى التقليد الأبلـه والوراثـة المتعصبة التي لا تسـمع لصوت العقل ولا تصغي إلى الشـعور ونداء الوجدان، وقد حكى القرآن عنهم هذا في معرض الرد عنهم على دعوتهم إلى الحق فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ (البقرة: ١٧٠)

ثم بكتهم على هذه البلادة العقلية التي لا تناسب إنسانيتهم فقال:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠)

ثم مثَّلهم في سـد طرائق الفهم والتعقل على أنفسهم وعدم تأملهم لما يسـمعون، بالبهائم التي ينعق بها راعيها فتسـمع الصوت ولا تفهم مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه فقال:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ (البقرة: ١٧١)

ثم سـجل عليهم أنهم لم يكتفـوا بإلغاء عقولهم، ولكنهم ألغوا كذلك حواسهم فعطلوها عن عملها الجاد المفيد فقال:

﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾

(البقرة: ١٧١)

كانت الأوثان في كل بيت

وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن في وثنيتهم البلهاء، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان، وبنوا لها البيوت والمُتعبَّدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال في بيت خاص به تتعبد له وتذبح عنده قرابينها وتطوف به وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها، وتستقسم بأزلامها في كنفه ليأمرها أو ينهاها، بل لم يبق بيت من بيوت العرب إلا اتخذ أهله صنمًا يعبدونه، قال محمد بن إسحاق: «واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفر وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله» ومن هنا جاء عجبهم حينما دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوحيد فقال - كما حكى القرآن عنهم -: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ قال هشام الكلبي في (كتاب الأصنام): «واستهترت[١٧] العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من

(١٧) تدور مادة (هـ.ت.ر) حول التمادي في الخطأ ومن ذلك هترتُ عرض الرجل: مزقته ورجل مستهتر يفعل ما يُنتقد عليه والهِتْرُ الداهية والأمر العجيب. وهتر الرجلُ: خرف فكثر كلامه والهِترُ السقط من الكلام، والمهاترة الإكثار من الكلام ينقض بعضه بعضا. والمراد بقوله (استهرت العرب) هنا: توسعت في اتخاذ الأصنام.

اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم الدوار، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل ثلاثةً أسافي قدره، وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلًا آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون لها ويتقربون إليها».

وقد تبلغ البلاهة ببعضهم إلى أن يصنع صنمه من طعام يعجبه، يطوف به ويتنسك لديه ما دام مستغنيًا عنه، فإذا عضه الجوع عدا عليه فأكله، وقد يتنبه الوعي الداخلي في نفس أحدهم فيدرك في لحظة عابرة أنه ليس على شيء، ولكنه تنبه الخطرة الخاطفة لا تنبه العقل المتأمل والعقيدة المفكرة. روى محمد بن إسحاق وابن الكلبي أن رجلًا من بني ملكان ابن كنانة أقبل بإبل له كثيرة ليقفها على صنم لهم يقال له (سعد) وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض جَدَّة التماس بركته - فيما يزعم - فلما رأت الإبل سعدًا وكانت مرعية لا تُركب - وكان يهراق عليه الدماء - نفرت منه، وذهبت في كل وجه، فغضب ربها وأخذ حجرًا ورمى به سعدًا ثم قال له: لا بارك الله فيك إلهًا، نفرت عليَّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهـــل سـعـــدُ إلا صــخـــرة بـتـنـوفـة
مـــن الأرض لا يُـــدعـــى لـغـــيّ ولا رشـد

وقـال ابن الكلبي في (كتاب الأصنام): وكأن لمزينة صنم يقال له (نهم) وبه كانت تسمى عبد نهم، وكان سادن نهم يسمى خزاعي ابن عبد نهم من مزينة ثم من بني عداء، فلما سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره وأنشد يقول:

ذهـــبـــت إلـــى نـــهـــم لأذبـــح عـنـده
عـتـيـرة نـسـك كـالـذي كـنـت أفـعـل
فـقـلـت لـنـفـسي حـيـن راجـعـت عـقـلـها
أهـــذا إلـــه؟ أيـــكـــم لـيـس يـعـقـل؟
أبـــيْـــتُ فـديـنـي الـيـوم ديـن مـحـمـد
إلـــه الـسـمـاء الـمـاجـد الـمـتـفـضـل

وفـي (كتاب الأصنام) أن امرأ القيس بن حِجْر لما أقبل يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة وكان صنمًا بأرض تبالة، وكانت العرب تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح، الآمر والناهي، والمتربص، فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: «عضضت با.. أبيك لو كان أبوك قُتِل ما عوقتني» ثم غزا بني أسد فظفر بهم.

وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة كانت هناك قلة منشورة في أرجاء الجزيرة العربية تنفرد باعتقادات خاصة

وتديـن بديانات أخرى، فكانـت اليهودية باليمن حتى غلبت عليها الحبشـة فأدخلت فيها النصرانية التي عاشـت بنجران حتـى جاء الإِسـلام، ثم تحولت اليهودية إلـى الحجاز فأقامت بيثرب وخيبر، وهناك لقيها الإِسلام.

الفطرة السليمة تعزف عن الوثنية:

وفـي غضون هذا الخضم الوثني كانـت توجد حفنة من الناس تنكـر علـى قومهـا التعبـد للأحجـار وتتطلـع إلـى الحنفية دين إبراهيـم وإسـماعيل، وكانت قد بقيـت لها آثـار باهتة لا تتضح منها معالمها، فتمسـكت بأهدابهـا باحثة عن حقيقتها حتى جاء الإِسـلام فسـمعوا ديباجة حديثة، ولم تتلبث بهـم أعمارهم حتى يطلعـوا على حقيقته، فمضوا على نياتهم وعقائدهم، قال محمد بن إسـحاق فيما يرويه ابن هشـام في السيرة: "واجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كل سـنة يومًـا، فخلص منهـم أربعة نفـر نجيًّا، ثـم قال بعضهـم لبعض: تصادقـوا وليكتم بعضكـم على بعض، قالوا: أجـل! وهم: ورقة بـن نوفل، وعبيد الله بن جحـش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسـوا لأنفسـكم، فإِنكم والله مـا أنتم على شـيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسـون الحنيفية

دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصراينة حتى علم علمًا من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر إلى الحبشة وهناك تنصر ومات على نصرانيته، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصر وأقام هناك، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح لها ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخًا كبيرًا مسندًا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته، وقد قال عنه النبي ﷺ: إنه يُبعث أمة وحده، وفي رواية عند ابن سعد في الطبقات: إني رأيته يسحب ذيله في الجنة.

وكان من أثر بقاء آثار الحنيفية بين العرب أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله، ويسندون إليه عظائم الأمور، وأن آلهتهم هذه إنما تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى عنهم القرآن في قوله:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزمر: ٣٨)

وفي قوله:

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)

وكان بعضهم يقول في تلبيته للحج: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك. إلا شريكا تملكه وما ملك». وهكذا كانت الجزيرة العربية تموج بالشرك والوثنية في صور مختلفة ومظاهر متعددة، تتلاقى كلها في تفاهتها وسذاجة أوضاعها، وبعدها عن يقظة العقل والوجدان.

كانت أخلاق العرب الجاهلية أثرًا للبيئة

أما أخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهي في الأغلب أخلاق وعادات تنبع من ينبوع عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية، فخيرها يستوحي البيئة ومستلزماتها من الفاقة وضنك العيش وقسوة الحياة، فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم والسخاء والإيثار، والذود عن المحارم ورعاية الجوار، والحلم والصبر وسرعة الخاطر وصفاء البديهة وكل ما جرى هذا المجرى مما سجله تاريخهم ووعته أشعارهم وشاد به أدبهم - فضائلُ كان لها عند العرب من المكانة ما لم يكن لها عند غيرهم من الأمم، ومن المعروف أن العرب ما كانوا يرجعون في ذلك إلى قانون خُلقي ولا نظريات نفسية ولا مراسم تربوية، ولكنهم كانوا يستلهمون دواعي البيئة التي تأويهم، ودوافع الحياة التي يحيونها، وتلك البيئة هي التي جعلت من هذه الفضائل

أمهات المكارم التي تتفاخر بها العرب حتى أسرفت فيها إسرافًا أخرجها عن دائرة الفضائل الفطرية التي تقرها العقول السليمة وتحض على التحلي بها الرسالات الإلهية.

وتلك البيئة نفسها هي التي جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقابح العقول ومناهي الديانات السماوية فضائل محلية، فشربُ الخمر والمقامرة، والفتك ونصر القريب الظالم، ووأد البنات وإكراه الإماء على البغاء تكسبًا وما إليها مما كان فاشيًا بين مجتمعات العرب وفي قبائلهم هي رذائل الفطرة النقية، ولكنها كانت عند العرب فضائل يتفاخرون بها، ويعيبون الذي لا يتحلى بحليتها.

وكان للعرب إلى جانب ذلك خرافات سخيفة يعتقدونها وخيالات ساقطة يقيمون حياتها عليها، وهي في الأغلب وليدة البله في العقيدة الدينية والوثنية التي كانت شائعة بينهم، ومن خرافاتهم الاستقسام بالأزلام، وهي أقداح موضوعة عند سدنة الأصنام مكتوبة عليها (افعل) و(لا تفعل) أو نحو ذلك مما يدل على المضي في المقصود أو العدول عنه، فإذا أراد أحدهم سفرًا أو أمرًا مما يعرض له في حياته ذهب إلى السادن وطلب إليه إخراج الأقداح ليأخذ منها واحدًا يأتمر بما فيه، ولها صور متعددة. ومن خرافاتهم التطير بالسوانح والبوارح من الطير. ومن سواقطهم طوافهم بالبيت عراة، وقد عدَّد القرآن الكريم كثيرًا من هذه الرذائل مبكتًا المتعلقين بها عائبًا عليهم

اعتقادها ناعيًا عليهم سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم.

وقد قضت البيئة الطبيعية والفوضى الدينية وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسبابٌ لإشعال نيران الحروب وإيقاد جذوة التطاحن قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم، ولا يغلو من يقول إن حياة العرب في جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل، وكأنما ضنَّت عليها الطبيعة بما يروي غلتها ويخصب أوديتها من نمير الماء فجادت عليها لتعوضها بصبيب الدماء، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس، فمن العسير جدًا على التاريخ أن يجد يومًا من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال، فإذا لم يكن في الجنوب كان في الشمال، وإذا لم يكن في نجد كان في تهامة، وإذا لم يكن بين قبائل حِمْير كان بين نزار، وإذا لم يكن في ربيعة كان في قيس، وقد عدَّد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى في الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها، فإذا بها راجعة إلى تغالب على مرعى، أو حماية جار، أو أخذ بثأر، أو مساعدة حليف، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب لبثت أعوامًا يصطلي أوارها الناس، وحسبك أن تعرف أن روايات التاريخ الجاهلي تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عامًا لا تخمد جمرتها، فلا يتحاجز الناس إلا ريثما يتهيئون لوثبة أخرى تعود فيها

الحرب جذعة[١٨] تأكل شباب المتقاتلين وشجعانهم، وحسبك أن تعلم أن سبب كل هذه الحرب الطويلة الدامية محاولة تغليب فرس على فرس في سباق، وحسبك أن تعلم أن حربًا بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام وكان سببها إصابة ناقة البسوس وكانت جارة لجساس بن مرة البكري فقتل بها كليبًا سيد تغلب ونشبت بين القبيلتين حرب شابت فيها الولدان.

وهكذا لا تكاد تنظر في تاريخ العرب قبل البعثة المحمدية إلا وتجد صفحات من الدماء صبتها على أديم جزيرتهم أسنة الرماح وظبات السيوف[١٩]، وقد ولَّدت هذه الحروب العداوة بين قبائل العرب وبيوتاتهم، ففشى بينهم التقاطع والشحناء، وكان من أثر ذلك تعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار لهم مهما بلغ شأنهم، ومن ثم ساد بين العرب في جاهليتهم النظام القبلي الذي يعطي الفرد من المكانة ما لم يعرف له في الأنظمة الاجتماعية التي تنسق فيها الجماعة على نسق نظامي يحكمه قانون ثابت وحكومة تقوم على تنفيذ ذلك القانون.

وقد استحكم هذا الوضع الفردي في الأسرة العربية،

(١٨) الجذع من الرجال الشاب الحدث. وعودة الحرب جذعة: أن تشتعل من جديد. (المجلة)

(١٩) ظُبةُ السيف حدُّه والجمع ظُبات. (المجلة)

فحكمها الفرد وتحكم فيها، فنظام الزواج والمفارقة والمواريث وعلاقة أفراد الأسرة كلها قائمة على حكم الفرد الذي لا يرد حكمه، وما بالك بنظام يجعل من قوانينه حرمان المرأة أن تتصرف في شيء من أمرها؟ وما بالك بنظام يجعل من حق أكبر أبناء الرجل أن يخلف أباه على زوجته؟ وما بالك بنظام يرمي بالأسرة كلها بل بالقبيلة من أجل جريرة فرد من أفرادها، ولو كان ذلك الفرد صعلوكًا أو خليعًا؟!

محمد ﷺ الإنسان

تسلسل الأحداث

توجيه البحث في هذا الفصل:

المقصود من هذا الفصل هو تصوير شخصية سيدنا محمد ﷺ تصويرًا تاريخيًا يقوم على معرفة الأحداث والحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة في الحياة التي كانت تحياها بيئة محمد ﷺ الطبيعية والاجتماعية، والحياة التي كان يحياها محمد ﷺ نفسه في تلك البيئة، وبيان الأطوار التي مر فيها تاريخ محمد ﷺ مدى تلك الحياة، وبيان آثار تلك البيئة في بناء شخصية محمد ﷺ التاريخية، وبيان آثار محمد ﷺ في البيئة من ناحيته الذاتية كرجل من رجالات تلك البيئة، نشأ في أحضانها، وعاش بين عاداتها وأخلاقها، وشام[20] تفكيرها، ورأى عقائدها، وخالطها في حربها وسلمها، ثم بيان آثاره كإنسان مكتمل خصائص الإنسانية في احتمال أعباء الرسالة الإلهية التي يبعثه الله بها إلى الناس كافة، في أطوارها المختلفة.

محمد صورة في بيئته وليس صورة منها:

هذا التصوير يقتضينا أن ننظر في شخصية محمد الإنسان ﷺ لنتعرف عليه في نشأته وعيشه، كيف نشأ، وكيف عاش في بيئة لها خصائصها ومميزاتها الطبيعية والاجتماعية، وكل إنسان

(٢٠) شام تفكيرها. هو من قولهم: شام البرق إذا نظر إليه ليتعرف أين يقصد.

نشأ وعاش في بيئة فلا بد أن يأخذ منها وتأخذ منه، ويجاذبها وتجاذبه، وفي هذا التجاذب بين البيئة وأفراد مجتمعها تظهر مميزات الأفراد الذاتية التي تحميهم من التأثر بعوامل البيئة تأثرًا كليًا قد تجعل الفرد صورة للبيئة وأثرًا من آثارها ليس غير، كالآلة يصنعها صانعها ليعمل بها ما يريد وهي مجردة من الإرادة والاختيار اللذين هما خصيصة الإنسان النابعة من إنسانيته، بَيْدَ أن هذه الخصيصة تتفاوت في أفراد الإنسان وهذا التفاوت هو فيصل الامتياز والتفوق في الشخصية المتكاملة، فما مدى أثر هذا التجاذب بين محمد ﷺ وبيئته في حياته مدى أربعين سنة قبل أن يُبعث نبيًا، عاشها في قومه وبيئته أطوارًا مختلفة مرهف الحس، قوي الوجدان، صادق الشعور، مشبوب الرجولية، فارع الشباب.

وهذا التصوير يقتضينا أن ننظر بعد هذا إلى حياة محمد ﷺ الذي تولى الله فيها تربيته وأعده لرسالته الخاتمة الخالدة، فأدبه فأحسن تأديبه، لنتعرف على معالم تلك التربية الإلهية والإعداد الرباني والتأديب الرحماني الذي جعل الله به عبده محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

وقد جرت سنة الله في رسالاته الإلهية أن يُعِدَّ من يصطفيه لها في خلائقه وجوهر إنسانيته وخصائص رجوليته إعدادًا خاصًا، يوائم بينه وبين ما انتدب إليه، حتى يستطيع القيام بما حُمِّل ويؤدي ما كُلف، كما أشار إلى ذلك القرآن الحكيم في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

أسرة محمد ﷺ خصائصها ومكانتها في العرب

محمد ﷺ سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها

ونظرُنا إلى محمد ﷺ الإنسان يَدْفعُ بنا إلى الوراء قليلاً قبل أن يكون محمد ﷺ شخصًا بين قومه، لنعرف النبعة التي انشقت عنه، ونعرف ماذا كان لها في شخصيته من أثر وراثي، أو أثر اجتماعي، ولسنا نعني هنا دوحته الكبرى (قريشًا) فهذه قد استوفت حظها من البحث، وإنما نعني فرعيها الفارعين وغصنيها الزاكيين: (عبد مناف) و(زهرة) اللذين انفرجا عن محمد ﷺ، فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكا وأينع فأثمر لسيدها عبد المطلب ابنه (عبد الله) وزهرة غصنها الذي زها ونما، فأثمر لوهب سيدها ابنته (آمنة) وهاتان الثمرتان ضمهما القدر المغلف بأسرار الغيب على وساد من الحب الشفيف واللقاء الشريف في سنة عربية للزواج بين كرام العرب معروفة، وشرعة إلهية منذ كان الناس مقدورة، فكان منهما (محمد) رسول الرحمة للعالمين. ووقوفنا عند (عبد مناف) و(زهرة) من بين أغصان الدوحة القرشية التي تجمعهما؛ لأنهما نقطتان تجمَّع فيهما كثير من خصائص الأصل والنبعة الكبرى، حتى كأنهما أصل مع الأصل، أو فرع انتهت إليه خصائص الأصل، فعبد مناف

ورث مجـد أبيه قصي الذي يعتبر في تاريخ قريش عرق الثرى[٢١] في إمداد أغصانها بأمجاد المناقب وأصول المكارم.

جده قصي كان ملكًا غير مملك إلا بخلائقه وجلائل أعماله

كان قصي بن كلاب أخا زهرة لأبيه وأمه، وكان في سن الفطام حيـن هلك أبـوه، وكان (زهرة) قد بلغ مبلـغ الرجال، فتزوجت أمهمـا رجلاً مـن قضاعة، فارتحل بها إلى أرض قومه من مشـارف الشـام، فأخذت معها قصيًّا لصغـره وتركت زهرة في قومه، ولما كبـر قصـي وبلغ مبلغ الرجـال عاد إلـى بلده وقومـه فوجد أخاه (زهـرة) قـد كبر وعمي، فتعـرف إليه فعرفه بعد أن استـوصفه. ووجـد (قصي) أمـر مكة بيد خزاعـة فخطب إلى سـيدها حُلَيل بن حبشـي ابنته (حُبَّي) فزوجه بها لمكان نسـبه وشرفه، وكان (قصـي) جلدًا نهدًا نسـيبًا، فكثر ماله وولده وانتشـروا في مكة وسمت نفسه فطمح إلى سيادة قومه، ورأى أنه أحق بالبيت وبأمر مكة من خزاعة، فحاربهم مستعينًا بإخوته لأمه من قضاعة وانتزع أمر مكة من أيديهم، فشـرف في قومه وسـاد، قال ابن هشـام في سيرته: «كان قصي بن كلاب أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة، لا ينازع فيها، فابتنى دار النـدوة وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله،

(٢١) يقال فلان عِرق الثرى لفلان أو للقوم أي أصلهم وأساسهم. (المجلة)

وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لـواء حـرب لهم مع قوم من غيرهم إلا فـي دار الندوة، يعقده لهم قصـي، ولا يعـذر لهم غلام[٢٢] إلا في دار النـدوة، ولا تخرج لهم عيـر فيرحلـون إلا منها، ولا يقدمـون إلا نزلوا فيها، تشـريفًا له وتيمنًا برأيه ومعرفـة بفضله ويتبعون أمره كالدين المتبع، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله».

ولمـا هلك قصي خلفه على أمر مكة ابنه (عبد مناف) لأن عبـد الـدار بِكر قصي وكبيـر ولده، كان ضعيفًـا فائل الرأي، وكان إخوته قد شـرفوا عليـه وكان أعلاهم كعبًا في السـيادة والشـرف (عبد مناف) وقد شـرف في زمـان أبيه وذهب كل مذهب[٢٣] وكان يقال له القمر من حسنه وله يقول الشاعر:

كـانـت قـريـش بـيـضـة فـتـفـلـقـت
فـالـمـحّ خـالـصـه لـعـبـد مـنـاف

عبد مناف أصل انتهى إليه محور القربى

وقـد اجتمعت قريش على (عبـد مناف) فاختط لها الرباع بمكـة ووطد سـلطانها عليها، وعلى عبد منـاف اقتصر النبي ﷺ في بيان القرابة في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ روى ابن سـعد فـي الطبقات عن ابن عباس قـال: لما أنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ خرج حتى علا

(٢٢) عُذِر الغلام: خُتين. (المجلة)

(٢٣) الطبرى جـ٢ ص١٨٤.

المـروة ثم قال: (يـا آل فهر) فجاءته قريـش، فقال أبو لهب ابـن عبد المطلب: هذه فهر عندك فقل، فقال: (يا آل غالب) فرجـع بنو محارب وبنو الحارث ابنـا فهر، فقال: (يا آل لؤي بـن غالـب) فرجع بنو تيم بن الأدرم بن غالـب، فقال: (يا آل كعـب بن لؤي) فرجع بنـو عامر بن لؤي، فقـال: (يا آل مرة بـن كعـب) فرجع بنو عدي بـن كعب وبنو سـهم وبنو جمح ابنـا عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فقال: (يا آل كلاب بن مـرة) فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة، فقـال: (يا آل قصي) فرجع بنو زهرة بن كلاب، فقال: (يا آل عبـد مناف) فرجع بنو عبد الدار بن قصي وبنو أسـد يبن عبد العـزى بن قصي، وبنو عبد بن قصي، فقال أبو لهب: هذه بنو عبد مناف عندك فقل، فقال رسـول الله ﷺ: (إن الله قد أمرني أن أنذر عشـيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون من قريش، وإني لا أملـك لكم مـن الله حظًا ولا من الآخرة نصيبًـا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فأشـهد بها لكم عند ربكم، فتدين لكم بها العرب وتذل لكم بها العجم) ورواه البخاري مختصرًا. قال ابن حجر فـي شـرحه: "ووقع عند البلاذري من وجـه آخر عن ابن عباس أبين من هذا" ثم سـاقه الحافظ موافقًا لرواية صاحب الطبقات وكذلك رواه مسلم والإمام أحمد والبيهقي وغيرهم.

وهذا الحديث وحده يكفي سـندًا لوقوفنـا عند (عبد مناف) فـي تطلب الأصـل القريب الذي ترجع إليه شـخصية محمد ﷺ

بالوراثــة فــي بعض الخلائق والسـجايا، فأنت تـرى أن النبي ﷺ وهــو فــي مقام بيــان القرابة التي لهــا المقدمة في الإنذار حسـمًا للأطماع، والتي أوثرت من قبل الله العلي الأعلى بالسبق، لتعتمد على وشــائج القربى في حميتها لحماية دعوته وحمايته لتجاوب ما بينه وبينهم من المشاركة في خصائص تنزع إلى عرق واحد قد سلك مسلك التدرج في التخصيص، حتى إذا بلغ مجتمعها الحافل رآها سوية في (عبد مناف) فأخبرهم أنهم أخص من يجتمع به في عــرق من قريــش، ولهذا التدرج الذي سـلكه النبي ﷺ من الأعم إلى الأخص حكمة لطيفة تبين أن الخصائص المشتركة بين فروع الأصل الواحد موزعة على الفروع كلها بنسـب متفاوتة، ولكنها قد تنتهي مجتمعة عند فرع ينزل منها منزل القلب من الشـجرة، وذلك الفرع هو الذي يسقي الأغصان المتفرعة عنه بجميع موارد الخصائص السابقة واللاحقة.

وهــذا التفسـير العملـي للقرابة ـ فـي هذا المقـام ـ يوحي بأن عبد مناف هو الفرع القرشـي الـذي تحدرت إليه جداول الخلائق الموروثــة مــن أعراق آبائــه، وهو الذي تقاطر فيــه غيث (قصي) وأمجاده وانتهت إليه خصائصه، فنَبُل وسـادَ ومَجُد في حياة أبيه علـى رغم صغر سـنه وعلى رغم وصيــة أبيه لأخيــه الأكبر (عبد الدار) بِكر قصي بما كان لقصي من مناصب السـيادة والشرف، وتـرك عبد مناف لهمته وفواضله. روى ابــن الأثير قال: لما كبر قصي ورَقَّ وكان ولده (عبد الدار) أكبر ولده وكان ضعيفًا، وكان

(عبد مناف) قد ساد في حياة أبيه، وكذلك إخوته، فقال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم فأعطاه دار الندوة، والحجابة ـ وهي حجابة الكعبة ـ واللواء فهو الذي كان يعقد لقريش ألويتهم، والسقاية فكان يسقي الحجيج، والرفادة وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعامًا للحاج يأكله الفقراء.

لكن بني عبد مناف لم يرضهم أن تذهب منهم مكرمتا الجود والبذل، والسقاية والرفادة، فانتزعوهما من بني عبد الدار، وتركوا لهم من شارات المجد ما سواهما حتى جاء الإسلام فأقر حجابة الكعبة في بني عبد الدار، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجعل اللواء فيهم مع الحجابة فقال لهم: (إن الإسلام أوسع من ذلك)(٢٤)، وهو يشير بذلك إلى أن اللواء صار في الإسلام مرتبة من مراتب المسلمين عامة، ولم يعد منصبًا من مناصب أمجاد قريش بل ولا عامة العرب، فانتزعه منهم وجعله لعامة المسلمين، وأقر السقاية والرفادة في بني عبد مناف يتوارثها الخلف منهم عن السلف، حتى أدركت أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وتعاقبها الخلفاء من بعده.

أما (زُهْرَة) الجد الأعلى للسيدة (آمنة) أم سيدنا محمد ﷺ فهو الأخ الأكبر لقصي والد عبد مناف، وقد أقام (زهرة) بمكة حياته

(٢٤) ابن الأثير جـ٢ ص١٠.

كلهـا لم يفارقها ولم يرحل عنها، ولما رجع قصي من بلاد قضاعة تعـرف إليه فعرفه وأدنـاه، ولم يزل ولده مع ولـده لا يفارقونهم، يدخلـون معهم فـي كل حلف ويشـاركونهم فيمـا يقومون به من عمـل، فأول حلف عقده بنو عبد منـاف (حلف المطيبين) فكان بنو زهرة معهم على بني عبد الدار، قال ابن هشـام في سيرته: "ثم إن بنـي عبد مناف بن قصي أجمعوا علـى أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسـقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشـرفهم عليهـم وفضلهم في قومهـم، فتفرقت عند ذلـك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، يرون أنهم أحق به مـن بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحـارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم وبنو سـهم وبنـو جمح وبنو عدي مـع بني عبد الدار، فأخـرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا فوضعوها لأحلافهم في المسـجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيهـا فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة توكيدًا على أنفسهم فسُمُّوا المطيبين.

بنو زهرة شركاء عبد مناف

وكان بنـو زهرة شـركاء بنـي عبد مناف فـي نصيبهم عند

تجزئة الكعبة لبنائها، حدث أبو جعفر الطبري عن محمد بن إسحاق قال: (ثم إن قريشا تجزأت الكعبة[٢٥] فكان شِقّ الباب لبني عبد مناف وزهرة).

هذا الترابط الذي كان بين زهرة وعبد مناف هو الذي يوحي بجعل فرعيهما في قريش ملتقى ما تنقله الوراثة من الخصائص الإنسانية المنسابة مع تيار التوالد في الأشخاص.

بيد أن هناك فرقًا بين فرعي عبد مناف وزهرة في مقدار ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع، والتاريخ يذكر لبني عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكان وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة، وهي خصائص كانت كلها متوافرة في قصي جدهم الأعلى، فأخذها منه وراثةً ابنُه عبد مناف وأورثها عبد مناف بنيه من بعده، ويذكر لبني زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء، وهي خصائص كانت طبعًا لأبيهم زهرة بن كلاب، ومنه تحدرت إلى والده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعداد مفطور.

والناظر إلى سيرة النسل المتجدد من عبد مناف، ولا سيما الفرع الذي انتهى إثماره إلى محمد ﷺ يجد صدق هذا في طباعهم وأحلامهم، والناظر في بني زهرة يجد كذلك خصائص أبيهم ممثلة في طبائعهم.

(٢٥) تجزأت الكعبة قسمت أعمال بناء الكعبة أقساما متساوية. (المجلة).

كان هاشم جد محمد ﷺ لأبيه صورة لخصائص الأمجاد

ومن ثم نقول ونحن مطمئنون: إن محمدًا ﷺ انتهت إليه خلاصة ما انطوى عليه بيتا عبد مناف وزهرة من خلائق وطباع وخصائص إنسانية؛ لأنك - بعد ما أجملناه لك من حديث عبد مناف وزهرة - إذا تقصيت التاريخ عرفت أن هاشم بن عبد مناف جد محمد ﷺ هو الذي خلف أباه من دون إخوته أبناء عبد مناف في شرفه ومكانته لتقارب ما بينهما من النوازع والأخلاق، فهاشم أول من سن الرحلتين لتجارة قريش، كان يرحل على رأس عيرها(٢٦) في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة إلى النجاشي فيَحْبوه ويكرمه، وكان قد أخذ حلفًا لقريش من قيصر لأن تختلف بتجارتها إلى الشام في الصيف(٢٧) وهي آمنة لا يتعرض لها أحد.

وكان هاشم على خلق أبيه في التمجد بالكرم والبذل، يقوم بالرفادة وإطعام الحاج في الموسم كله، وكان رجلًا موسرًا، فإذا حضر الحج قام في قومه، فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفُه وزَوَرُه، يأتون شعثًا غبرًا من كل بلد على ضوامر كأنها القداح، فأقْروهم واسقوهم، وكانت قريش ترافد على ذلك

(٢٦) العير قافلة التجارة. (المجلة).

(٢٧) ابن الأثير جـ٢.

حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم يُخرج في كل عام مالاً كثيرًا، ويقول: لو أن مالي يسع ذلك ما كلفَتكم شيئًا، وكان يأمر بحياض من أدم ثم يسقي فيها الماء من البئار التي بمكة - والماء يومئذ قليل - وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وجَمْع، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر إلى أن يَصْدُروا من منى تنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم(٢٨).

وذكر ابن سعد في الطبقات: أن قريشًا أصابتهم سنوات ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، فجعله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة فأطعم قومه والناس معهم حتى أشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحياة بعد السنوات التي أصابتهم، فحسده أمية بن عبد شمس ابن أخيه، وهو الذي كان يساميه في بيت عبد مناف، وكان أمية ذا مال فتكلف أن يصنع مثل صنيع هاشم فعجز عنه، فتنافر إلى أحد حكام الجاهلية فنفَّر هاشمًا(٢٩)، وجلا أمية عن مكة إلى الشام عشر سنين فكان ذلك مبدأ العداوة بين بيتهما.

وكانت العرب لا تعرض لقوافل قريش إذا مرت على أحيائها وقبائلها؛ لأن هاشمًا ألف العرب على أن تحمل قريش

(٢٨) ابن سعد في الطبقات.

(٢٩) نفرَّه (في المنافرة) حكم له على خصمه. (المجلة)

بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق(٣٠).

كان لهـذه المكرمـات والمناقـب أثر خطير فـي مكانة عبـد مناف وأبنائه عند جميع العـرب، فعرفوا لهم فضلهم وقدَّروهم قدرهم، ونظروا إليهم نظرة فيها قداسة واحتشام، لم ينظروها لغيرهم ممن يساميهم من أبناء عمومتهم مع ما كان في أيديهم من مراتب المجد والشرف وشارات السيادة والتقـدم مثلهـم، لكـن بني عبـد منـاف امتـازوا بالصنائع والمكارم يسـدونها إلى قومهم، واختيارهم من بين مراتب الشرف مرتبتي الرفادة والسقاية ـ وهما مظهر الجود والبذل ـ هـو الذي زاد فـي مكانتهم ورفعهم في نظـر العرب قاطبة وهو الذي عقد لهم وشيجة المحبة والإعظام في قلوبهم.

عبد المطلب صورة جامعة لخصائص جدّيه عليه السلام.

أمـا عبـد المطلب جـد محمد الأدنـى فكان أشـبه بجده الأعلـى قصـي بـن كلاب في شـرفه وتسـاميه وطموحه إلى عوالـي الأمور، ومن غرائب هذا التشـابه أن كلا منهما نشـأ بعيدًا عن قومه وبلده في حضن أمه حتى اشـتد سـاعده وبلغ مبلغ الرجال وعرف أنه فرع الدوحة القرشـية وابن هامتها، فتحمل إلى قومه وبلده، فاسـتقبله الشـرف والمجد ودانت

(٣٠) طبقات ابن سعد.

له السيادة . فقصي رحل إلى مكة فوجد أمرها بيد خزاعة وبني بكر ، وليس لقريش منه شيء ، فانتزعه منهما انتزاعًا ، وأخذه غلابًا ، فساد على أهل مكة وملَّكه قومه عليهم فلا يصدرون إلا عن رأيه . وعبد المطلب نشأ في أخواله بني عدي بن النجار مع أمه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ، وكان أبوه هاشم رآها وهو في طريقه إلى المدينة مارًا بسوق النبط ، فرأى امرأة حازمة جلدة تأمر بما يشترى ويباع لها ، فأعجبته وعرف نسبها ، وكانت لشرفها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، فتزوجها هاشم وشرطت الإقامة في قومها ، فلما بنى بها حملت بعبد المطلب وسمته (شيبة) لبياض في شعر رأسه ، وكان هاشم ارتحل في تجارته إلى الشام فمات بغزة ، وشب عبد المطلب بين لِدَاته وأقرانه من فتيان يثرب ، حتى كان يومًا مع غلمان من أخواله ينتضلون(٣١) ، فجعل كلما أصاب الهدف صاح مفتخرًا : أنا ابن عمرو العُلا أنا ابن سيد البطحاء ، فسمعه ثابت بن المنذر أبوحسان بن ثابت الشاعر ـ وكان خليلاً لعمه المطلب ـ فلما قدم ثابت مكة معتمرًا لقي المطلب ، فقال له : لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفًا ! ! لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانًا من أخواله ، فيدخل مَرْمَاتَيْه (سهميه) جميعًا في مثل راحتي هذه ،

---

(٣١) انتضل القوم تسابقوا في الرمي بالسهام. (المجلة)

ويقول كلما خسق (أصاب الهدف) أنا ابن عمرو العُلا، فشغف المطلب بإحضاره إلى قومه وبلده، فأحضره ووقفه على ملك أبيه وسلمه إليه، ونازعه عمه نوفل بن عبد مناف في أشياء فاستعان بأخواله من بني النجار فردها عليه.

وكان المطلب أكبر من أخويه هاشم وعبد شمس، ولكن هاشمًا كان [قد] سبقه إلى الشرف والسيادة، فكانت بيده الرفادة والسقاية، فلما مات هاشم خلفه عليهما أخوه المطلب وكان جوادًا كريمًا، وكانت قريش تسميه الفياض لسماحته، وكان يتجر إلى اليمن والحبشة وهو الذي عقد لقريش حلفًا مع النجاشي في متجرها، وفي أرض اليمن بمكان يقال له ردمان هلك المطلب، فقام بعده عبد المطلب بن هاشم بالرفادة والسقاية.

قصة حفر زمزم

زمزم مكرمة من أعظم المكارم التي خص بها عبد المطلب

وفــي حياة عبد المطلب حادثــان مهمان يتصلان من قريب بسيرة محمد رســول الله ﷺ وتاريخه، أما الحادث الأول فهو (حفر زمزم)، واتصال هذا الحادث بتاريخ محمد ﷺ أن القدر انتهــى بــه (أولاً) إلى إبراز والده عبــد الله في صورة تحاكي ما وقع لجده الأعلى إســماعيل بن إبراهيم الخليل في قصة الذبح والفداء، وإســماعيل وإبراهيم كانا مناط شــرف قريش خاصة ومعقــد مفاخر العرب عامة، فلهــذه المحاكاة في القصة أثرها النفســي عند العرب عامة، ولقب عبــد الله بالذبيح كما لقب بذلــك من قبله إســماعيل، وانتهى به (ثانيًــا) إلى جمع أبويه على أكرم أبوة وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود.

وحــادث حفــر زمــزم كان لــه أثر خطيــر في ازديــاد مكانة عبــد المطلب رفعــة وعلوًا بين قومه وفي بلــده بل بين العرب أجمعين، فقد يسَّــر حفر زمزم الماء وهو أعز شــيء في وجود مكــة ومنزلتها علــى أهل الحــرم وعلى الحجيــج كله، وعلى عبد المطلب نفســه وهو صاحب مرتبتي الرفادة والسقاية من مراتب السؤدد والشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته.

وكتب التاريخ والســيرة تلوِّن هذا الحادث بألــوان مختلفة، يتدخــل فيها الخيــال أحيانًا فيضفــي عليها من بريقــه اللامع ما يجعلهــا أقــرب إلى بــاب القصــص الفضفــاض منها إلــى الواقع

المشـهود، ولكن هناك أشـياء في القصة لا يختلف فيها الرواة، ذلك أن عبد المطلب وقريشًـا قاطبة كانـوا على يقين أن بالحرم إلـى جوار بيـت جدهم إبراهيم بئـر أبيهم إسـماعيل، وهي عين ثـرارة لا تنزف أبدًا، ولكن أين مكانهـا على التحديد من البيت؟ هذا ما حيرهم وصدهم عن التفكير فيها طول مدة التاريخ الغابرة وهم يتهيبون أن يجعلوا من سـاحة البيت منطقة تفتيش وتنقيب عن شيء مهما بلغ عندهم من العزة، فإن عزة البيت وحرمته فوق عزتـه، وما أدراهم إن هـم أقدموا على البحـث ألا تغضب عليهم آلهتهـم التي أحاطوا بهـا البيت؟ بل ما يدريهـم ألا تضار جدران البيـت مـن أثـر المعاول والمسـاحي؟ لكـن عبـد المطلب كان أكثرهم شـغلا وتفكيـرًا في ذلـك؛ لأنه صاحب السـقاية [هي] مكرمتـه ومكرمـة أبيـه من قبلـه. وآبار مكـة التي يسـتقي منها الماء للناس في الموسـم الأعظم متناثرة متباعدة، وليسـت كلها غزيـرة المـاء مما يجعله يطمئـن إلى كفاية الحجيـج منها، وهو وحيـد وليس معه إلا بكـره الحارث، وبنو عبد شـمس وبنو عبد الدار منافسـوه في الشـرف يتربصون به، وهنا تذكر الرواية التي لا اختـلاف فيها أيضًا بين الرواة أن عبد المطلب أري مكان زمزم منامًـا وإن كانـت الرواية تختلف في أسـلوب الرؤيـا وكيفيتها، وذلك مـن الوجهة التاريخيـة لا يقف في طريـق البحث، وأقرب الروايـات وأوفاها رواية ابن سـعد في الطبقات من طريق شـيخه محمـد بن عمـر الواقدي، وهي روايـة عبد الملك بن هشـام في

سيرته عن محمد بن إسحاق.. وهذان المصدران من أقدم مصادر السيرة والتاريخ وعليهما معول من جاء بعدهما فابن الأثير في كامله خالف إمامه أبا جعفر الطبري وتابعهما فيها.

قال ابن سعد: "فلم يزل عبد المطلب مقيمًا بمكة حتى أدرك، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجرًا إلى أرض اليمن فهلك بردمان من أرض اليمن، فولي عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض الأدم بمكة، فلما سُقِي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ليسقيهم، وكانت زمزم سقيا من الله، أتي في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها، فقيل له احفر طيبة[٣٢] قال: وما طيبة؟ فلما كان الغد أتاه فقال: احفر برة، قال: وما برة؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك فقال: احفر المضنونة، قال وما المضنونة؟ أبن لي ما تقول، فلما كان الغد أتاه قال: احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزح ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم -قال: وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم- وهي شرب لك ولولدك من بعدك، قال:

فغدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته معه ابنه الحارث بن عبد

(٣٢) طيبة، برة، المضنونة: هذه أسماء لبئر زمزم لوحظ فيها مُضَّمناتها من المعاني كما فسرها صاحب النهاية.

المطلــب وليس له يومئــذ ولد غيره، فجعل عبــد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمســحاة في المكتل، فيحمله الحارث فيلقيه خارجًــا، فحفر ثلاثة أيام ثم بدا لــه الطوي فكبر[٣٣]، وقال: هذا طوي إســماعيل!! فعرفت قريش أنه قد أدرك الماء، فأتوه فقالوا: أشــركنا فيه، فقال: ما أنا بفاعل، هــذا أمر خصصت به دونكم، فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد هُزَيم ـ وكانت بمعان من أطراف الشام ـ فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلًا من بني عبد مناف وخرجت قريش بعشــرين رجلًا من قبائلها، فلما كانوا بالقفير من أرض الشــام أو حــذوه فني ماء القوم جميعًا، فعطشــوا، فقالوا لعبد المطلب: ما تــرى؟ فقال: هو المــوت، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفســه فكلمــا مــات رجل دفنــه أصحابه حتــى يكون آخرهــم موتًا رجلًا واحــدًا فيمــوت ضيعــة، فموت واحــد ضيعة خير مــن أن تموتوا جميعًــا، فحفروا ثم قعــدوا ينتظرون، فقال عبــد المطلب: والله إن إلقاءنــا بأيدينا هكذا للعجز، ألا نضرب في الأرض فعســى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد، فارتحلوا، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجر تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه وشربوا جميعًا، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلموا إلى الماء الرواء فقد ســقانا الله، فشــربوا

(٣٣) الطوي: البئر المطوية. (المجلة).

واستقوا وقالوا: قد قضي لك علينا والذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فوالله لا نخاصمك فيها أبدًا، فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم.

تدخل الخيال في قصة حفر زمزم لا يُحيلها ولكنه يعطيها لونا من ألوان البيئة العربية

هذه الرواية بخطوطها الجوهرية من الوجهة التاريخية لم يسقطها المؤرخون ولم يزيفها -فيما رأينا- أحد من القدامى، وهي من الوجهة النفسية بالنسبة لجوها الذي يحيطها به الرواة لا يأبى التاريخ الواقعي أن يشهدها، فليس فيها شيء تنكره حياة العرب في جاهليتهم، ولا سيما في قريش ومكة خاصة، فهي حياة أحلام وكهانة ورؤى ومناجاة وأشباح وخوارق مادية وعجائب حسية، تشترك في تمثيلها كائنات مرئية وأخرى غير مرئية يؤمن العرب عامة وأهل مكة خاصة بقوتها وسلطانها.

وسواء لدى البحث أصَّحت هذه الأقصوصة كلها أم بطلت كلها، أو صح بعضها وبطل بعضها، فإن كلمة التاريخ في مصادره العربية متفقة على أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانت له عين ماء إلى جوار مكان البيت الحرام، أغيث بها ليشرب هو وأمه في قصة مشهورة، عرضت لها الروايات الصحيحة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وقد رواها البخاري في صحيحه، وكذلك تتفق كلمة التاريخ على أن

هذه العين طُمَّتْ[٣٤]، وسـواء أكان طمها بفعل إنسـان ـ على ما تنسـبه الرواية لعمرو بن مضاض الجرهمـي أم بفعل الجو وأحـداث الطبيعة وقلة الأيدي المسـتصلحة في ذلك المكان وتلـك الأزمنـة الغابـرة، وكلمة التاريـخ أيضًا متفقـة على أن قريشًا لما سكنت مكة وعمرتها ودانت لها بسلطانها الديني تقاسمت مراتب الشرف في بيوتاتها، فكانت سقاية الحجيج فـي بني عبد منـاف يتوارثونها حتى انتهـت إلى عبد المطلب بن هاشم، وهو أحوج في موقفه هذا إلى الماء الغزير القريب، فما يمنع أن يكون قد دار في نفسـه خاطر بئر جده إسماعيل، واعتلج فيها الشـوق إلى العثور عليها وتملكه الشعور بذلك، فانعكس فـي وعيه الباطن فرأى في منامه ما رأى، وكان هاتِفَهُ من نفسـه وإليها؟ ومـا يمنع أن يكون عبـد المطلب قد ألهم ذلـك إلهامًا؟ أو تفرسـه فألقي إليه منامًـا؟ ومايمنع أن يكون نوجـي بـه في نومه كمـا يناجى كل مشـغول بأمر مـن الأمور بشيء مما يهجس في خاطره.

ليس في القصة بُعد ولا إحالة من وجهة رؤيا المنام وهواتف عبد المطلب ومغالبته قريشًـا فهذه كلها أمور جاهلية معروفة معهودة.

(٣٤) طُمَّتْ: رُدِمت. (المجلة).

موقف الطبري من قصة حفر زمزم

بيد أننا نقف هنا وقفة متأملة مع شيخ مؤرخي الإسلام أبي جعفر الطبري، فإنه -رحمه الله- مر على قصة حفر زمزم مرور الكرام فلم يحفل بعديد رواياتها كعادته في الإسهاب وتكثير الروايات في الحادث الواحد، واكتفى بقوله في صدد الحديث عن مكانة عبد المطلب: (وهو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفونًا).

فما شأن أبي جعفر؟ فهل شك في القصة وتفاصيلها فأعرض عنها؟ لا نظن هذا؛ لأن أبا جعفر نفسه اعتمد على رواية محمد بن إسحاق في قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه إن بلغوا عشرة يمنعونه من قريش، هذه القصة مؤسسة على قصة حفر زمزم، وقد صرح بذلك أبو جعفر في قوله عن محمد بن إسحاق: " كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة"، والذي لقيه عبد المطلب من قريش في حفر زمزم في رواية محمد بن إسحاق هو ما ذكره عنه ناقل سيرته عبد الملك بن هشام في روايته المطابقة لرواية ابن سعد، ومهما يكن من أمر قصة حفر زمزم فإنها تقودنا إلى الحديث عن الذبيح عبد الله بن عبد المطلب أبي محمد ﷺ، وقصة نذر ذبحه وما انبثقت عنه من زواجه بآمنة بنت وهب، ومن بينهما كان محمد ﷺ.

قصة الذبيح عبد الله بن عبد المطلب

ارتباط حفر زمزم بقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه

يتصل الحديث عن عبد الله بن عبد المطلب أبي محمد رسول الله ﷺ في كتب التاريخ بحديث حفر زمزم اتصالًا وثيقًا، فقد كان حفرُها فيما يقول الرواة سببًا في نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه تقربًا إلى الله، وكانت قصة الذبح مَعْبرًا إلى زواج عبد الله بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ، وبهذا يظهر اتصال الحديث اتصالاً مباشرًا بتاريخ وسيرة محمد رسول الله ﷺ، وتظهر حكمة تحقيقنا لقصة زمزم لما لها من أثر واضح في مكانة عبد المطلب جد محمد ﷺ الذي رآه في طفوليته ورأى ما يتمتع به من الشرف والمجد، وهو الذي تعهده وكفله بعد وفاة أبيه، وكان عبد المطلب يتمجد بهذا الحفيد العظيم ويتفرس فيه مكنون الغيب عند ولادته فيسميه محمدًا، فيقال له: ما هذا الاسم الذي ليس في أسماء آبائك؟ فيقول: سميته محمدًا ليُحمد في السماء والأرض، ويقول لأبنائه - وهم حافون حول فراشه في ظل الكعبة وقد أبى محمد ﷺ إلا أن يجلس فوق فراش جده، فَيُهمّ أعمامه بتنحيته إعظامًا لمكان أبيهم شيخ قريش وسيدها: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا.

وحديث نذر عبد المطلب نحر أحد بنيه وإسهامه بينهم وطيران القرعة على سهم عبد الله كغيره من أحاديث التاريخ الجاهلي تعددت رواياته، واختلفت أساليبه في مصادر التاريخ العربي، ولوَّنه الرواة بألوان شتى، وهو في إجماله كالمجمع

عليه في تلك المصادر.

وصفوة سياقته منها أن عبد المطلب بن هاشم لما احتفر زمزم وأخرج منها كنز جرهم نازعته قريش وطلبت أن تقاسمه وتشاركه في الماء، وكانت جُرْهم حين عزموا الخروج من مكة دفنوا غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية (نسبة إلى بلدة بالهند تسمى قلوع) وخمسة أدراع سوابغ، فاستخرجها منها عبد المطلب، وكان يتألـه ويعظم الظلم والفجور، فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة، وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة، وجعل المفتاح والقفل من ذهب، فحسدته قريش وجاءته كأنها تغازيه، فحاكمها فظفر عليها، وكان وحيدًا فيهم ليس له ولد سوى ابنه الحارث، فهاجت به لواعج الشوق إلى المكاثرة بالولد، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم تقربًا إلى الله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا له: أوف بنذرك فأسهم بينهم وقال لسان أعظم أصنامهم (هبل) اضرب عليهم بالقداح، فضرب عليهم فخرج سهم عبد الله - وكان فيما يقول الرواة أصغر بني عبد المطلب وأحبهم إليه - فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة بيده الأخرى ثم أقبل به على مذبح قريش الذي تذبح فيه قربانها عند صنميها إساف ونائلة ليذبحه، قال الطبري: فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت قريش وبنوه - أي

بنــو عبــد المطلب إخوة عبــد الله ـ : والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعْذِر فيــه[٣٥] ، لئــن فعلت هذا لا يــزال الرجل يأتي بابنــه حتى يذبحه فمــا بقــاء الناس على هذا؟ فقال له المغيــرة بن عبد الله بن عمرو المخزومي وكان عبد الله بن عبد المطلب ابن أخت القوم– : والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقال ابن سعد في الطبقات: ثم أخبر عبد المطلب أولاده بنذره ودعاهم إلى الوفاء به لله فما اختلف عليه منهم أحد، وقالوا: أوف بنذرك وافعل ما شئت، فقال: ليكتب كل رجل منكم اسـمه في قدحه ففعلوا، فدخل عبد المطلب في جوف الكعبة وقال للسادن: اضــرب بقداحهم، فضرب فخرج قــدح عبد الله أولها ـ وكان عبد المطلب يحبه ـ فأخذ بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية، فبكى بنات عبد المطلب، وكن قيامًــا وقالت إحداهن لأبيها: أَعْذِرْ فيه بــأن تضرب في إبلك الســوائم التي فــي الحرم. فقال للســادن: اضرب عليه بالقداح وعلى عشــرة من الإبل ـ وكانت الدية يومئذ عشــرًا من الإبل ـ فضرب فخرج القدح على عبد الله، فجعل يزيد عشــرًا عشــرًا كل ذلك يخرج القــدح على عبــد الله حتى كملت المائــة، فضرب بالقــداح فخرج على الإبل، فكبــر عبد المطلب والنــاس معه، واحتمل بنات عبد المطلــب أخاهن عبد الله، وقدم عبد المطلب الإبل فنحرها بين الصفا والمروة.

---

(٣٥) يقال أعذر فلان فعل ما يجنبه اللوم. (المجلة).

اختلاف الروايات في قصة ذبح عبد الله

وقال ابن سعد أيضًا من رواية ابن مجلز : إن عبد المطلب أُتي في المنام فقيل له : احتفر ، فقال : أين ؟ فقيل له : مكان كذا وكذا ، فلم يحتفر ، فأتي فقيل له : احتفر عند الفرث عند النمل عند مجلس خزاعة ونحوه ، فاحتفر فوجد غزالًا وسلاحًا وأظفارًا ، فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغازوه ، فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرن أحدهم ، فلما ولد له عشرة وأراد ذبح عبد الله منعته بنو زهرة ، وقالوا : أقرع بينه وبين كذا وكذا من الإبل ، فأقرع فوقعت عليه سبع مرات وعلى الإبل مرة ، ثم صار من أمره أن ترك ابنه ونحر الإبل .

وفي حديث رواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي فقال : يا رسول الله خَلَّفْتُ البلاد يابسة والماء يابسًا هلك المال وضاع العيال ، فعُد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه ، قال معاوية - مبينًا من هما الذبيحان ؟ - فيقول الأعرابي : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن يُسِّرَ الأمر بها أن ينحر بعض ولده فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله ، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم ، وقالوا : أرض ربك وافد ابنك . ففداه بمائة ناقة ، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثاني ، أي في نسب النبي ﷺ .

هـذه أربـع روايـات تتفق كلهـا على أصـل قصة نـذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه، وتختلف في سبب هذا النذر، فحديث معاويـة الـذي رواه الحاكـم يجعل هذا النذر من قبيل الشـكر علـى تسـهيل أمر زمـزم، وسـائر الروايـات يجعله مـن قبيل الشـكر علـى منح عبد المطلـب أولاده الذين منعـوه من بغي قريش وعدوانها، وتتفق هذه الروايات علي أن عبد الله بن عبد المطلب هو الذي خرج سهمه ليكون الذبيح، وتختلف فيمن تصدّي لعبد المطلب فمنعه من ذبحه.

هل المتصدي أبناء عبد المطلب؟ كيف والرواية تذكر أنهم جميعًا أطاعوه حينما أخبرهم بنذره وقالوا له: افعل ما تشـاء؟ ولكـن العاطفـة عند رؤيـة العزيمة وقيام قريـش معهم يقرب ذلك ويجعله مقبولًا، أو المتصدي لعبد المطلب بناته، بَكَيْنَ لَمَّا رأين وسائل التنفيذ قائمة، وقالت إحداهن كالمنبهة لعقل عبد المطلب وعاطفته: أعذر فيه بإبلك السوائم في الحرم؟ أو المتصدي هم أخوال عبد الله من بني مخزوم يقدُمهم شـيخهم المغيرة بن عبد الله تعزيزًا بابن أختهم؟ أو هم بنو زهرة حلفاء بنـي عبد مناف؟. وهذه الرواية التي تسـنِد منع عبد المطلب من ذبح عبد الله إلي بني زهرة أغربُ الروايات وأعجبها، وهي روايـة تلفـت نظر الباحث إلي ما جاء بعد قصة الذبح مباشـرة من زواج الذبيح عبد الله بآمنة بنت وهب سيد بني زهرة، فهل كان بين قيام بني زهرة دون ذبح عبد الله وإصهارهم إليه صلة؟

ولم لا ؟ وبنو زهرة منذ كانوا هم حلفاء بني عبد مناف وشركاؤهم فيما ينوبهم، وأقرب بطون قريش مودة إلي بني هاشم، والمعهود بين الناس طبيعة وعُرفًا أنه إذا كان بين بيتين من البيوتات صلة مودة وتحالف وناب أحدهما نائبةٌ قام معه أهلُ مودته وحلفه متقدمين علي سائر أقاربه، توكيدًا لمظهر المودة والحلف، فلما تصدى بنو زهرة ومنعوا عبد المطلب من ذبح ابنه وأجابهم إلي الفداء، طاروا بالذبيح فرحين إلي بيوتهم احتفالا بحياته وسرورًا بنجاته، وفي غمرة السرور طارت الكلمات بالتهنئة والتحايا يتولاها سيد البيت وزعيمه، وكانت كلمات التودد والتحبب إلي الذبيح، وجري حديث مداعبة الشباب بالمصاهرة، فتسمّع الشيخ الهاشمي وأعجبه فنقله جِدًا بينه وبين سيد زهرة توكيدًا لمظاهر المودة علي سنن الناس وعوائدهم، وأجاب سيد زهرة كما يجيب كل نبيل يُدعي إلي مكرمة من كفء كريم، وارتفعت الكلمات إلي تحقيق موعود الله باصطفاء عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب، قرارًا لخير نسمة برأها الله في الوجود.

رواية تلوح عليها لوائح الوضع

وفي رواية عند الطبري عن عبد الله بن عباس أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها فجاءت عبد الله بن عمر، فقال لها عبد الله بن عمر: لا أعلم الله أمر في النذر إلا الوفاء، فقالت المرأة: أفأنحر ابني ؟ قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن

تقتلوا أنفسكم، فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك، فجاءت عبد الله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب -وكان أحب الناس إلى عبد المطلب- فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل، فقال ابن عباس للمرأة: فأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا، إنه لا نذر في معصية الله، استغفري الله وتوبي إلى الله وتصدقي واعملي ما استطعت من الخير، أما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فَسُرَّ الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أن قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون ألا نذر في معصية الله.

وقد ذكرنا هذه الرواية استيفاء لعرض روايات قصة الذبيح وهي رواية عجيبة لأنها تسند إلى رجلين من أعلام علماء الصحابة ورأسين من رءوس العبادلة -اشتهرت بالفقه في الدين وحمل الشريعة والتصدر للفتيا، هما عبد الله بن عمر بن الخطاب وحبر الأمة عبد الله بن عباس- جهلا بحكم شرعي يعلمه أقل الناس فقهًا في الدين، وتسند إلى عبد الله بن عمر أنه أفتى فلم يصب الفتيا، مع أن الرواية تقول إنه لم يزد

علـى أنه بيَّن أن الله أمر في النذر بالوفاء ونهى عن قتل النفس، وهـذا توقف في حكم المسـألة وليس فتوى، وتسـند إلى ابن عبـاس أنه أفتـى المرأة بنحر مائة من الإبل مسـتدلًا بفعل عبد المطلب بن هاشـم، ولم يقل أحد من أهل العلم في الإسلام أن فعـل عبد المطلـب حجة في دين الله، وأطـم من ذلك وأفحش أن هـذه الرواية تسـند الجهل بهذا الحكم الشـرعي إلى عامة الأمة فـي الصدر الأول من الصحابـة وتلاميذهم ما عدا مروان الذي كشـف عن هذا الحكم ففرح النـاس به وتعلموه يومئذ، ولـم يزالوا من يوم مـروان هذا فقط يفتـون ألا نذر في معصية الله، وليت شـعري مـا كانت فتواهم فيما يعـرض لهم من نذر المعصيـة قبل وجود مروان وعلمـه؟! هذه الرواية نجزم بعدم صحتها للوجوه التي ذكرناها، ولوائح الوضع السخيف عليها لائحةٌ فلا يسوغ التعويل عليها في شيء.

الروايات كلها تتفق على مجمل قصة النذر وعزمة الذبح، وأن الذبيح هو عبد الله أبو محمد ﷺ

والروايـات في قصة عبد الله الذبيح تـكاد تجمع على أن عبد المطلب أسـهم بين بنيـه لينحر أحدهم وفاء بنـذره بعد أن بلغوا عشرة، وبعض الروايات يجعل بلوغهم عشرة هو مناط النذر، بل إن صاحب الطبقات من رواية الواقدي يعددهم بأسمائهم فيقول: فلما تكاملوا عشـرة، فهم الحـارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس.

وصاحب الطبقات نفسه يقول: فكان تزوج عبد المطلب بن هشام وتزوج عبد الله بن عبد المطلب في مجلس واحد فولدت هالة بنت وهب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب، فكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة، ومعلوم أن زواج عبد الله بآمنة وزواج عبد المطلب بهالة كانا بعد قصة الذبح، فكيف يكون أولاد عبد المطلب عند العزم على الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة وحمزة لم يولد بَعْدُ والعباس أصغر من حمزة وكان حينئذ لا يزال غيبًا من الغيب؟ وكيف يَعُدُّ حمزة والعباس باسميهما في أولاد عبد المطلب الذين تكاملوا عشرة ليفي بنذره؟ وأعجب من ذلك أن الطبري وغيره يصرحون بأن عبد الله أصغر ولد أبيه، فكيف يكون أصغرهم وفيهم حمزة وهو لم يكن قد ولد يوم أن تزوج عبد الله؟ وعباس أصغر من حمزة، وكان لقربه من رسول الله ﷺ يشتبه على بعض الناس سنه بسنه، فقد روي أنه سئل بعد إسلامه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا أسن منه، وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها وجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قَبِّلْ أخاك فقبلته، فأين ميلاد العباس من ميلاد أخيه عبد الله والد رسول الله ﷺ.

هذا لون مما يدخل على الروايات من الغلط فيتناقله الرواة دون نقد وتمحيص حتى يتقادم فلا يُعرف مخرجه أو يُتمحل له، وهو كثير في روايات التاريخ الجاهلي، ولا تخلو منه

روايات التاريخ الإسلامي، وقد انخدع به كثير من الباحثين المعاصرين ونحن ننبه على ما يعرض لنا منه في ثنايا البحث مما قد يصادم حقيقة تاريخية.

الاختلاف في عدد أولاد عبد المطلب ورأي القسطلاني والسهيلي

وقد عرض القسطلاني في مواهبه إلى نقد هذه الرواية ولكنه أبعد النجعة في محاولة المخرج، فقال: وقد استشكل بعض الناس أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزوجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بهما، قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه ـ عليه السلام ـ اثني عشر فإن صح هذا فلا إشكال في الخبر، وإن صح قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازًا، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين أوفى بنذره.

ورواية الاثني عشر رواها ـ أيضًا ـ ابن سعد في الطبقات، ولكن من طريق ابن الكلبي، وقد اضطربت في ذكر الأسماء فبلغت بهم ثلاثة عشر لا اثني عشر كما ذكرت في الإجمال قبل التفصيل بتعديد الأسماء، فزادت على رواية الواقدي

المتقدمة ثلاثة هم: عبد الكعبة وحجل[٣٦]، وقثم. والاعتماد على هذه الرواية في دفع الإشكال اعتماد على متكأ ضعيف، وأكثر الروايات المحددة تقف عند العشرة، ورواية الزيادة انفرد بها ابن الكلبي.

وزعْمُ أنَّ الولدَ يقع على الولد وولده تكلُّفٌ لا تحتمله حقائق التاريخ، وأقرب الروايات - رواية الحاكم في حديث معاوية الذي ذكرناه سابقًا، ومحصلها: أن عبد المطلب نذر نحر بعض ولده إن سهل الله له حفر زمزم هكذا دون تحديد لعدد أو تسمية لأحد، فلما تم له ما أراد أسهم بين ولده الموجودين ومنهم عبد الله والد رسول الله ﷺ وكان أصغرهم وأحبهم إلى أبيه، فخرج سهمه لتتم المحنة وتجمل بعدها المنحة، فكان هو الذبيح المفدى.

(٣٦) في البداية والنهاية لابن كثير أن الغيداق لقب لحجل وليس اسمًا لغيره، وفيه أن عبد الكعبة اسم المقوم وقيل هما اثنان، وفيه أن حجلاً اسمه المغيرة وأن الغيداق لقب لرجل منهم اسمه نوفل وهو غير حجل.

تزويج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة

تصوير لخوالج عبد الله بن عبد المطلب وقد تمثل له موقف الذبح بيد أبيه

وصلت قصة الذبيح إلى هذه النهاية لتبدأ بها قصة الحياة في صورة أكبر من عبد المطلب ونذره وسوائمه في الحرم، وأكبر من قريش وزمزم، تلك هي قصة التأذن بميلاد الإنسانية وتجديدها في أكمل صورة من صلة السماء بالأرض.

رُوِّع الفتى عبد الله بن عبد المطلب أيما ترويع وقد رأى من أبيه شيخ قريش وسيدها الجدَّ النافذ والعزيمة الصارمة في أمر ذبحه، ورأى الموت إلى جانب أَبيه يرقبه ليختطفه من بين إخوته وأخواته اللائي بكين له وانتحبن عليه فزاده بكاؤهن ترويعًا، فتوزعت مشاعره، وتبددت أحاسيسه، وذهبت به الخوالج كل مذهب.

حياة البنوة امتداد لحياة الأبوة، هذا هو قانون الأزل للحياة، فلو كان أحد في هذا الوجود يملك أن يعطي من حياته وعمره شيئًا يضاف إلى حياة غيره لما وجد- عن صدق وجداني- من يجود بذلك من غير تلفت أو حساب سوى أب يسخو في إسراف ليمد في حياة ابنه وهو راض مغتبط، يملؤه شعور داخلي في نفسه بأنه لم ينزل عن شيء من حياته لغيره؛ لأنه يتمثل في شخص ابنه ومثاله ذاته وشخصيته. ويرى في وجود ابنه وحياته وجُودَه وحياتَه، فأي إنسان لا يروَّع ولا يطيش صوابه وتتحطم أعصابه وهو يرى أباه أرحم الناس به وأحبهم

إلى قلبه، وألصقهم بنفسه وأسرعهم إلى رغائبه وهواه، يمشي به على مشـهد من هذه الدنيا ليذبحه على أبشع صورة وأشنع منظر مر على إنسان في هذا الوجود؟

أي شـيء هـذا الذي ينتظر عبـد الله بن عبـد المطلب؟ إنه الذبـح، إنه دمه الزكي يتطاير من شـفرة أبيه على أرض الحرم تقربًا لأحجار قريش، إنها إنسانيته الناطقة الضاحكة الجميلة تحال إلـى.. إلى ماذا؟ إلى صورة بَهيمـةٍ تذبح، ومن الذابح؟ إنـه الوالـد الذي صبَّت فيه الحياة أضخمَ مـا تملك من ذخيرة في عصارة الشـفقة والحب والرحمة والحنان، أي ابتلاء هذا؟ وارحمتاه للشـيخ الوالد مرة، إنه يمشـي إلى النهاية ليصْبِر أو ليذهب، ولكن وارحمتاه ألف مرة للشـباب الفينان(٣٧) الذي سـيُهصَر(٣٨)، والعـود الريان الذي سـيُذوَى ويجف، ماذا من الأماني والآمال في خيال هذا الشباب الغض المقبل على زهرة الحياة ونضارتها التي ستقطعها عن الوجود الثريّ تلك اللحظة المشـئومة؟ ومـاذا من الرؤى والأحـلام في عينيـه الظامئتين لرحيق الحياة؟ بـل ماذا من الأفكار والتقديرات يدور في رأس هذا الفتى الحيران؟

إنها لحظة ويسـدل السـتار علـى آخر فصول هـذه الرواية الباكية الدامية، لحظة وينصرف النظارة وينتهي كل شيء.

---

(٣٧) الفينان الطويل الحسن. (المجلة).

(٣٨) الهصْرُ الكسر. والمراد هنا بقوله سيهصر: سينتهي. (المجلة).

لمعات القدر من وراء الغيب أضاءت للشيخ الظلام

لكن القدر المسيطر على منافذ الحياة كان أسرع من خوالج عبد الله الذبيح، وهواتف عبد المطلب وعزيمته وتضرعات أبنائه ودموع بناته، وكأن ضوءًا ساطعًا لمع فجأة فأنار زوايا نفس الشيخ الأسيف، وكشف عن بصيرته وهو آخذ بيد ابنه الحبيب وفي يده الأخرى الشفرة المشحوذة يمشي به خُطًى متثاقلة إلى مذبح قريش، يحدث نفسه والهمُّ القاصم يعتلج فيها، ويصيح: الوفاء، الوفاء، وإذا به يجأر إلى السماء بكل ما تملك الأبوة من حنوٍّ واسترحام: اللهم هو أو مائة من الإبل. بخ، بخ! فداء فريد في ضخامته، فِداء لم تعرفه العرب لعربيٍّ قبل عبد الله الذبيح، ولم تعرفه قريش قبلُ لمفدًّى قبل أن تسخو به نفس عبد المطلب، فداءً عظيمًا؛ لأنه لمفدًّى حبيب من أبٍ يحترق قلبه أسًى، وتذوب كبده همًّا وأسفًا. قالوا: وتعطفت آلهة عبد المطلب وقبلت الفداء ونجا الذبيح عبد الله من الموت، وكان لا بد أن ينجو؛ لأن القدر الكريم كان قد اختاره منذ الأزل ليكون مشرق ديباجة الحياة في صلة السماء بالأرض لآخر مرة في حياة الأحياء، وما آلهة عبد المطلب إلا حفنات من رمال تلاصقت حجرًا حوَّم فوقه الشيطان.

نجا عبد الله من الموت وبقي له الفزع والروع يملآن حنايا نفسه، ويرسمان على ملامحه آثارهما وهو بعدُ شابٌّ غضٌّ الإهابِ لم يكمل الحلقة الثانية من عمره النضير أو جاوزها

بشــيء قليل، فأي شيء يعوضه ويرد إليه نفسه الذاهبة مع إبل الفـداء؟ وأي شــيء يبعث في قلبه السـكون والطمأنينة، وأي شيء يعيد إليه مرح الشباب وينسيه آلام تلك الساعة الفادحة؟ لا شــيء غير الزواج، أمنية الشـباب وأمله، ومسـرح خواطره ورؤاه، ومجتمع لذاذاته وأحلامه. وصحت عزيمة الشيخ على أن يمســح بيد حنانه الأوصاب عن قلب ابنه الحبيب، ومضى فــي طريقه إلى حلفائه أبناء عمومته الأعلين بني زُهْرة يخطب لابنــه الذبيح سـيدة عقائل العـرب آمنة بنت وهب سـيد بني زهرة؟ وهنا يجيء دور التاريخ ليتحدث فنسمع منه، وتختلف رواياتــه في كثيـر من أمر هذا الـزواج كعهدنا بهـذا التاريخ، الظالم، المظلوم، في كل شيء من حوادثه بَلْه الجاهلي منها.

سن عبد الله بن عبد المطلب عند زواجه

كانت ســن عبد الله بن عبد المطلب يوم محنة الذبح سن شاب أقرب إلى الحداثة، ولكنها الحداثة الفارعة التي تسبق إليها الرجولية في سرعة مستعجلة، وهي سنُّه يوم أن خطب لــه أبوه آمنــة بنت وهب، ويوم أن بنى بها فحملت برسـول الله ﷺ، وتزويـج هـذا الصنف مـن الفتيان في هذه السـن المبكرة يكـون إما من قبيل التدليل والتـرف الناعم تزيدًا في التحبب والتحنن، وإما من قبيل العطف والرحمة لإزاحة أثقال حادث فادح ألمَّ فأمضَّ، وقد تكون دواعي تزويج عبد الله الذبيح مزيجًا من اللونين، فهو أحب أبناء أبيه إليه، وقد

ابتُلي بأقسى ما يُبتَلى به إنسان، مع ما كان قد بلغ أبوه الشيخ من سن تبتدر فيها نهاية الآمال إلى حيز الوجود، فهو قد حمل فوق كاهله من ثقل غاربات الأيام والسنين ما يوحي إليه بما يسبق به الزمن في تحقيق رغائب الحياة لمن يحبهم.

والذين ذهبوا مذهب التحديد والضبط في تقدير سن عبد الله بن عبد المطلب وقت تزويجه- وهو أمر يحف به الشك؛ لأن الحياة يومئذ لم يكن لديها من الوسائل ما يسمح بتحديد وضبط مثل هذه الأمور عند العرب- اختلفوا، فالطبري وابن الأثير يحددان تلك السن تحديدًا دقيقًا بما يقف بها عند الثامنة عشرة. قال ابن الأثير تبعًا لأبي جعفر: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من سلطانه. اهـ. وقد اتفق الرواة على أن ميلاد رسول الله ﷺ كان في طي العام الذي تزوج فيه أبوه بأمه، فلم يكن بين بناء عبد الله الذبيح على آمنة بنت وهب ومولد رسول الله ﷺ سوى مدة الحمل، وهي على المحقق من الروايات تسعة أشهر كوامل، فتكون سن عبد الله- على هذه الرواية- ثماني عشرة سنة.

ويذهب ابن سعد في الطبقات إلى أن سن عبد الله بن عبد المطلب يوم وفاته كانت خمسًا وعشرين سنة، وهو يصرح

بـأن وفاتـه كانت ورسـول الله ﷺ يومئذ حمل فـي بطن أمه، ويتفـق مع سـائر الرواة فـي أن الحمل برسـول الله ﷺ عقب تزوج أبيه بأمه، وعلى ذلك تكون سنة وفاة عبد الله أبي رسول الله ﷺ هي سنة تزوجه بأمه، فتكون سنُّه- على هذه الرواية- حين تزويجه خمسًا وعشرين سنة.

وقـد اختار هذا الرأي ابن كثير فـي البداية والنهاية فقال: "والمقصود أن أمه حين حملت به توفي عبد الله وهو حَمْل في بطن أمه على المشـهور، قال محمد بن سـعد: حدثنا محمد بن عمـر- هو الواقدي- حدثنا موسـى بن عبيـدة اليزيدي، وحدثنا سـعيد بن أبي زيد عن أيـوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعـة، قال: خرج عبـد الله بن عبد المطلب إلى الشـام، إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا مـن تجاراتهـم ثم انصرفوا فمروا بالمدينـة وعبد الله بن عبد المطلـب يومئـذ مريض، فقال: أنا أتخلـف عند أخوالي بني عـدي بن النجار، فأقام عندهم مريضًا شـهرًا ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلَّفنـاه عند أخواله بني عدي بـن النجار وهو مريض، فبعث إليـه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي، ودفن فـي دار النابغـة، فرجع إلـى أبيه فأخبـره، فوجـد عليه عبد

المطلب وإخوته وأخواته وجدًا شـديدًا[٣٩]، ورسـول الله ﷺ يومئـذ حمـل، ولعبد الله بـن عبد المطلب يـوم توفي خمس وعشـرون سـنة، قال الواقدي: هذا هو أثبت الأقوال في وفاة عبد الله وسنه عندنا".

ثـم قال ابن كثير: والـذي رجحه الواقـدي وكاتبه الحافظ محمـد بن سـعد أنه ـ عليه الصلاة والسـلام ـ توفـي أبوه وهو جنين في بطن أمه، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه.

(٣٩) الوجد: الحزن (المجلة).

قصة المتعرضة لعبد الله بن عبد المطلب

كان مــن الطبيعي في بيئة قريش ومكة وحرمها بعد حادث نــذر عبد المطلــب وما انتهت إليه قصة الذبيح أن يستشــرف كثيرات من النســوة إلى عبــد الله بن عبد المطلب ليكون لهن وينجبن منه، فهو أنهد شــباب الحرم وأشــب ما يكون فتى في فتيــان مكة، وأجمــل رجال قريــش وأنضرهم، وهــو المختار لذلــك الحــادث الخطير الذي كان حديــث قريش ومكة كلها فــي محافلها وبيوتها، إلى جانب ما كان يتناقله المحدثون في مجالس السمر ومحافل الملأ من أنباء وبشارات تلقفها التجار والســمار والمتألهون من أفواه الأحبــار والرهبان وقارئي كتب الأقدميــن عن نبي يبعث من العــرب قد أظل الناسَ زمانُه، ومن أجدر بالنبوة وهي منصب ديني من قريش قُطَّان الحرم وجيران البيــت؟ ومــن أحق بها فــي قريش من بني عبــد المطلب وهم أصحاب مراتب الشــرف الديني فــي الحرم؟ بل من أحرى بها يحمــل نورها من هذا الفتى الذي اختارتــه الإرادة العليا قربانًا وزلفى؟ والنســاء أبدًا مولعات بالغرائــب والفرائد، فليس من المستغرب أن تعرض امرأة أو أكثر نفسها على عبد الله الذبيح عقــب نجاتــه وفدائه، ولكــن الله الذي ادخر مــا حمل عبد الله من شــرف نوراني ونور قدسي لأشرف عقائل قريش آمنة بنت وهب هو الذي صانه عن الاستجابة إلى من تعرَّض له منهن.

اختلاف الروايات في المرأة المتعرضة

قال أبو جعفر الطبري وعبد الملك بن هشام: ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد ابنه عبد الله، فمر – فيما يزعمون – على امرأة من بني أسد يقال لها أم قتال، واسمها رقيقة أو قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة، وكانت تنظر وتعتاف(٤٠)، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نُحرت عنك وقع عليَّ الآن، قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سنًّا وشرفًا فزوجه آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، فدخل عليها مكانه حين ملكها فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال: ما لك لا تعرضين اليوم عليَّ ما كنتِ عرضتِ عليَّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة.

(٤٠) تعتاف: من العيافة، وهي التكهن وصدق الحدس والظن وزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. قال ابن منظور في اللسان: وفي الحديث: إن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ مر بامرأة تنظر وتعتاف فدعته إلى أن يستبضع منها فأبى.

رأي آخر في المرأة المتعرضة

وقال ابــن كثير في (البداية والنهايــة) من طريق أبي بكر الخرائطــي عن ابن عباس : لما انطلق عبــد المطلب بابنه عبد الله ليزوجــه مر به على كاهنة مــن أهل تبالة متهودة ، قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت : يا فتى هل لك أن تقع عليَّ الآن وأعطيك مائة من الإِبل ، فقال عبد الله :

أمّـــا الـــحـــرامُ فـــالـــمـــمـــات دونـــه
والـــحِـــلُّ لا حِـــلُّ فـــأســتــبــيــنــه
فــكـــيـــف بـــالأمـــر الـــذي تـبـغـيـنـه
يـــحـــمـــي الـــكـــريـــمُ عـــرضَـــه وديـــنـــه

ثــم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنــت وهب بن عبد مناف بن زهــرة ، فأقام عندهــا ثلاثة أيام ، ثم إن نفســه دعته إلى ما دعته إليــه الكاهنــة فأتاهــا فقالــت : ما صنعــت بعــدي؟ فأخبرها ، فقالت : والله ما أنا بصاحبة ريبة ، ولكني رأيت في وجهك نورًا فــأردت أن يكــون فــيَّ ، وأبــى الله إلا أن يجعله حيــث أراد ، ثم أنشأت تقول :

إنـــــي رأيـــــت مـــخـــيـــلـــة لـــمـــعـــت
فـــتـــلألأت بـــحـــنـــاتـــم[٤١] الـــقـــطـــر

(٤١) الحناتم: سحائب سود.

فلمائها نور يضيء له ... ما حوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخرًا أبوء به ... ما كل قادح زنده يوري
لله ما زهرية سلبت ... ثوبيك ما استلبت وما تدري

وقالت أيضًا:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم ... أمينة إذ للباه يعتركان
كما غادر المصباحَ عند خموده ... فتائل قد ميثت[42] له بدهان

وروى ابن سعد في الطبقات قصة الخثعمية وذكر البيتين المنسوبين لعبد الله دون أن يذكر فيهما الشطر الأخير من البيت الثاني، وكأن هذا أشبه، أما الشعر المنسوب إلى الخثعمية فهو شبيه بموضعه، وفي بيتيها الأخيرين توضيح يشبه أن يكون طبيعيًّا لدوافع الرغبة في عبد الله بن عبد المطلب، فهو شاب مشبوب الحيوية، خصيب البدن، ريان الدم، قوي البنيان، جميل المحيَّا، باهر الطلعة، لا يرى في قريش فتًى أحسن منه قامة ولا أوسم وسامة، ولا أحلى منه منظرًا، ولا أعدل منه قدًّا، ولا أملح

(٤٢) الميث: المرس والإذابة.

منـه وجهًا، ولا أرفع منه حسـبًا ولا أعرق منه نسـبًا. وأما حديث النور الذي تقول الرواية إن النسوة المتعرضات له رأينه في وجهه فطلبن منه مـا طلبن من أجله فهو قد يكون حديث الرغبة العارمة التي حركتها المناسـبة في حادث الذبح والفـداء، فتخيلت رواء الشـباب وإشـراق الجمال، وفخر الأحدوثة بهذا الحادث الفريد نـورًا يبهر، وغرة تسـطع، وليس بعجيب أن يكـون عبد الله والد رسول الله ﷺ تميز بجمال فوق جمال أقرانه، وحسن فوق حسن لداته[٤٣]، وحيوية أشـبّ وأقوى من حيوية أمثاله، لما يحمل من بذرة النبوة التي اسـتدارت في ذاته اكتمالًا فاسـتنارت على وجهه حسـنًا وجمالًا حسـبه الراءون غـرة في وجهه تسـطع أو نورًا في جبهتـه يلمع، وليس هو- في بديهة الرأي- شـيئًا من أنوار الناس الحسية المعروفة، ولكنه نور روحي قدسي تمثل في قوة الحيوية الطافحة والجمال الغامر، والإشراق الباهر، فعبرت عنه كل رائية بما تمثلت أو تخيلت، وفي قول الخثعمية:

كما غادر المصباحَ عند خموده
فتائلُ قد ميثت له بدهان

لفتـة فنيـة بديعة عميقـة لا يقدر علـى تصويرهـا إلا أنثى امتـازت في أنوثتها وعرفت من أمر الرجال ما لم يعرف غيرها من أمثالها، فعبد الله مر عليها في أول مروره مرافقًا لأبيه وهو

(٤٣) اللِّدات جمع لدة. ولِدة الرجل: تِربُه والتِربُ: المماثل في السن. (المجلة)

ريان الشباب طافح الحيوية، مياس الفتوة، بكر الرجولية، لم يعرف النساء ولا عرفه النساء، ولم تُعتصر حيويته، ولم يستلب شبابه ولا انتزع رواؤه، ولكنه بعد ذلك تزوج آمنة بنت وهب وهي أبرع فتاة في قريش، وللشباب عرامة وإسراف، فلما خرج من عند زوجه، وكان قد أودعها سر النبوة ونورها، ومر بصاحبته المتعرضة أعرضت عنه بعد شغفها، وحدثته نفسه بما تحدث به نفسُ كل فتى في موقفه، وطلب إليها ما كانت طلبته منه بالأمس فأبت عليه لأنها عفيفة شريفة، كانت قد أرادت إلى شيء منه قد ذهب عنه، فما حاجتها به؟ أين تلك الحيوية الطافحة؟ وأين ذلك الشباب الريان؟ وأين إشراقة ذلك الجمال الفينان؟ وأين الحسن المشبوب في وجه عبد الله؟ لقد استلبته آمنة بنت وهب سر جماله وحيويته فغادرته ذابلًا نعسان، وخامدًا كسلان، ومعصورًا يابسًا كما غادرت الفتائل الممروسة بالدهن المصباحَ عند خموده، ونفاد زيته، فما نفعُها فيه وما فائدتها منه؟ لقد فازت به آمنة بنت وهب، وما كل قادح زنده يوري.

من أغرب روايات المتعرضة

وأغرب روايات المتعرضات رواية تذهب إلى أن عبد الله بن عبد المطلب كانت له زوجة مع آمنة أم رسول الله ﷺ وهذه الزوجة هي التي عرضت عليه نفسها أو هو كان قد طلبها فأبطأت عليه فذهب إلى زوجه آمنة. روى الطبري عن محمد

بن إسحاق أن عبد الله دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج عنها فتوضأ(٤٤) وغسل عنه ما كان به من أثر ذلك الطين وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها فحملت بمحمد ﷺ ثم مر بامرأته تلك، فقال: هل لك؟ فقالت: لا، مررتَ بي وبين عينيك غرة فدعوتني فأبيت ودخلت على آمنة فذهبتْ بها. وهذه رواية تبدو عليها آثار الصنعة، ويظهر أن صانعيها وضعوها دفعًا لما تضافرت عليه الروايات من أن امرأة عرضت نفسها على عبد الله قبل زواجه بآمنة بنت وهب أن يستبضع منها- والاستبضاع نكاح الجاهلية معروف يقصد به نساؤهن الإنجاب ممن يرين عليه مخايل النجابة- فكأن واضعي هذه الرواية أرادوا المبالغة في تطهير والد رسول الله ﷺ أن يراد لهذا النكاح الذميم، وقد يرجّح هذا قولُ ابن كثير في تاريخه: "وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودَّت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ وأنه قد أَزِفَ زمانه، فعرضت نفسها عليه، قال بعضهم: ليتزوجها، وهو أظهر".

(٤٤) الوضوء هنا بمعناه الوضوء اللغوي وهو النظافة التي تجعل البدن كأنه مضيء.

فانظر إلى قوله عن بعضهم ليتزوجها واستظهاره لذلك تعلم أن زعمهم في المتعرضة أنها كانت زوجة لعبد الله مع آمنة حديثُ خيَّله الإغراق في إرادة تصوُّن والد رسول الله ﷺ عن تلك الأنكحة الجاهلية الذميمة، ومن ثم قال ابن كثير عقب ذلك: وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ فإنه كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

وأنت ترى أن الصيانة حاصلة ولو لم تكن المتعرضة زوجة لعبد الله مع أم رسول الله ﷺ ؛ لأن الله تعالى صانه عن إجابتها إلى ما أرادت، وادخر هذا الشرف فوضعه حيث أراد، وقد أنكر بعض الرواة والمؤرخين أن يكون لعبد الله بن عبد المطلب زوجة غير أم رسول الله ﷺ وجزم بأنه لم يتزوج غيرها، وهذا ما لا نشك فيه وهو رأي جمهور علماء السير والتاريخ.

ويظهر من تعدد الروايات واختلاف أسماء المتعرضات وأوصافهن أن قصة التعرض ربما تكررت مع أكثر من امرأة واحدة، وفي كلها حفظ الله والد رسوله ﷺ حتى وضع نوره حيث أراد.

تدخل الخيال الفضفاض في قصة زواج عبد الله بآمنة

وكأنما عز على الرواة أن يخلو حديث زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من طرافة الحب والقصص المترف الناعم، فأضفوا عليه لونًا من هذه الألوان الطريفة

المستملحة في رواية زعمت أن آمنة بنت وهب حدثت بجمال عبد الله وحسنه فرغبت في زواجه فتزوجته، حكى الطبري عن الزهري قال: إن عبد الله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش فذكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته وقيل لها: هل لك أن تَزَوَّجِيه؟ فتزوجتْه، فدخل بها وعلقت برسول الله ﷺ. قال الواقدي: هذا غلط، والمجتمع عليه عندنا في نكاح عبد الله بن عبد المطلب ما حدثنا به عبد الله بن جعفر الزهري عن أم بكر بنت المسور أن عبد المطلب جاء بابنه عبد الله فخطب على نفسه وعلى ابنه فتزوجا في مجلس واحد، فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وتزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

ولولا هذا النقد الذي غلَّط به الواقديُّ- وهو من متقدمي الرواة ومؤرخيهم- هذه الروايةَ لقلنا إنها تكملة للرواية المشهورة، تتمشى معها في صورتها الطبيعية إلى أن خطب عبد المطلب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله، فحدثها أبوها أو عمها- على اختلاف الروايات فيمن زوجها- عن خطيبها عبد الله بن عبد المطلب، وعن شبابه وجماله وحسن هيئته كالمرغب فيه حتى تأنس فلا تنفر وترضى فلا تأبى، فرغبت فيه بعلًا ورضيته زوجًا، وتلك سنة معروفة عند بعض العرب في استشارة بناتهن في أمر زواجهن وترك حرية اختيار الزوج لهن، ولكن نقد الواقدي وتغليطه الرواة في هذه الرواية يشعر

بأن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه الأقصوصة على أنها رواية مستقلة في بيان الطريقة التي وصلت بعبد الله أبي رسول الله ﷺ إلى زواج آمنة أمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

ومهما يكن من شأن هذه الروايات فإن عبد الله بن عبد المطلب بنى بزوجه آمنة بنت وهب سيد بني زهرة في أهلها، فأقام عندها ثلاثًا، وكانت تلك السُّنَّة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها.

سفر عبد الله في تجارته إلى الشام ومحمد ﷺ جنين في بطن أمه

وكان عبد الله بن عبد المطلب يعيش على سنة آبائه الأماجد تاجرًا سفارًا، يذهب مع تجار قريش في عيراتها إلى أسواق العرب ومتاجر اليمن والشام، ولم يكن واسع الثراء كأصحاب المضاربات والمرابين من تجار قريش، ولم يكن فقيرًا يقعده الفقر عن أسباب الكسب والعمل للحياة من أشرف طرائقها، ولا سيما بعد زواجه، فقد أصبح مسئولًا عن بيت فيه زوجته التي وجب عليه أن يعولها ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعورًا ملك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهله - في أشهر الروايات - أن يقيم إلى جانب زوجته بعد أن بنى بها أكثر من أيام معدودات، ثم أذن مؤذن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة، فخرج مع قومه مودعًا من أبيه الشيخ الأسيف وزوجته الحبيبة على جِدّة عهده بها وإخوته وأخواته وهم يرقبون عودته،

ولكن الأقدار التي تعلو بحكمتها على مدارك العقول أبت على عبد الله الذبيح أن يرجع من سفرته هذه ليشهد آمنة الزوجة الحبيبة وقد تنفس حملها عن أكرم مولود يشهد الحياة أول ما يشهدها يتيمًا.

وهكذا مات عبد الله بن عبد المطلب في هذه الرحلة وهو عائد من الشام مارًّا بأخوال أبيه (عبد المطلب) بني عدي بن النجار، وهكذا دفن عبد الله أبو رسول الله ﷺ بيثرب مدينة الأسرار والأنوار، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي ومنزل الأحرار، ومثوى الكملة الأبرار.

ولأمر ما كانت المدينة المنورة مرقد عبد الله أبي محمد رسول الله ﷺ قبل أن يشهد الوجود طلعة محمد بن عبد الله ﷺ، ولأمر ما كانت من بعده مثوى محمد ﷺ، ولله تعالى حكمة فوق مدارك العقول والأفهام.

الفهــرس